شهاب محمد

كَلِمَةُ السِّر

رواية

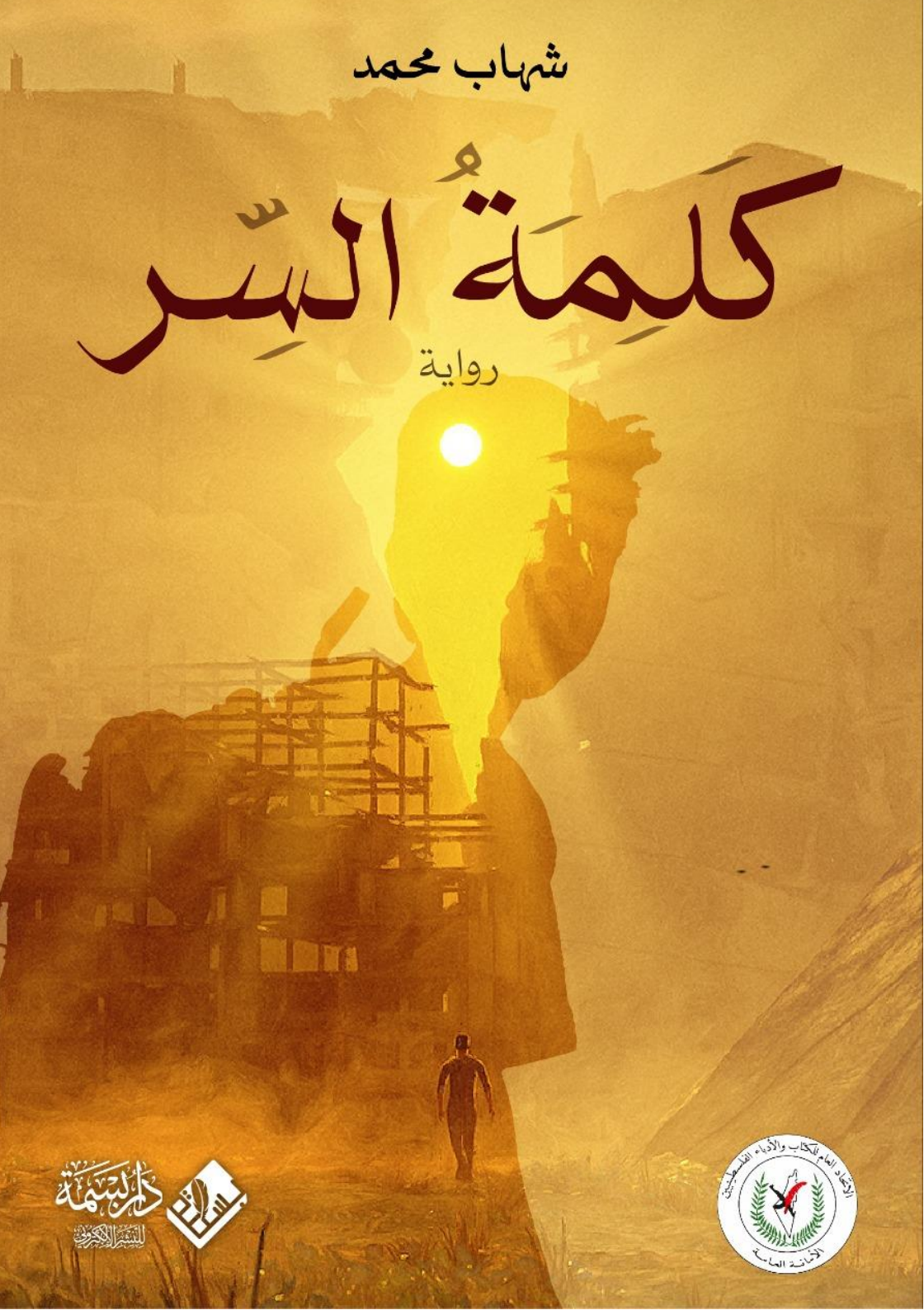

دار البسمة للنشر الإلكتروني

الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين
الأمانة العامة

كَلِمَةُ السِّر

شهاب محمد

اسم الكتاب: كلمة السر

اسم الكاتب: شهاب محمد

نـوع العمل: رواية

التدقيق اللغوي: الكاتب محمد شهاب

عدد الصفحات: 215

الرقم الدولي EBIN: 16-134-1-210808

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2021م / 1442هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من المؤلف. ©

كَلِمَةُ السِّر

رواية

شهاب محمد

المملكة المغربية
أسفي مراكش
تملالت

الاتحاد العام للأدباء والكتاب
الفلسطينيين
رام الله

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بعد الغروب ..

كم مرة ساجد روحي

مدججة بالأحلام البعيده ..

هذه محاولة للظهور ،

على جسد القلب الملوع ،

بحكم التجربة والبلوغ ..

من سيصنعني في المعركة

حصانا على صهيله ،

تترتب ايات الجهاد الاعظم ..

من سيصنعني من الغضب ،

الذي يكسر أجنحة الليل ،

من الويل ..

ويقلع انياب الأفاعي ..

وتلك مشيئة لمن شاء ،

ولم تكن مشيئة كلاب البراري ..

اصعد درجة إلى الاعلى ،

ولا تنظر حتى إلى قدمك السفلى ..

وانظر من امامك

كلما استدرت إلى الغرب ،

والجهات واحده ،

ولكن رائحة البحار هي الرائحه ..

أيتها السماء العاليه ..

أيتها النجوم المتلألئة ..

هل سيتوهج قلب الكوكب الدري ..

او ستغرس شمسنا ،

شعاعا في المستحيلات ..

ليخرج هذا الليل من سواده ،

وتنضج رغبة الجنون ،

بلا تفاح الاجنة..

نحن جئنا من الشوق إلى الشوق ،

ومن الموت إلى الموت ،

وليس لنا غير ارجل ،

صنعتها المستحيلات ..

كم مرة ساقول ،

أدركنا الياس في الصميم ..

ولا حول ولا قوة الا ،

بما بدأت وبما انتهيت ..

فاصنع يديك من رحيلك ،

لا إلى سفر مضيت ،

ولا إلى قدر قضيت ..

وربما يجتاحك الاعصار ،

او يأتيك ،

من غير المراحل مرحله ..

وتصعد في لحظة الانكسار إليها ،

يمينا ويقينا ..

سيترك هذا المكان ،

مسافات ظلي اليك ،

ترى هل تعود ..

وهل نلتقي ثانية ،

في القريب البعيد ..

وتراجع الليل إلى الوراء ،

وسقطت قنبلة أخرى ،

في المياه الضحله ..

وأمطرت السماء إشارات

تنوير مختلفه ..

وسمعت اصوات الضفادع ،

تعبر النهر ،

وتردد الصدى ..

أيها الحزن ،

لماذا تتبعني خطاك .. ؟

وكان على الطرف الآخر ،

كتاب ولوحة أخرى ،

وبقيت الصفحة ،

مفتوحة للخطاب ..

هجرت اوراقي ودفاتري ..

وركبت ظهر الموجة الأولى ،

الى رمال الصحراء ..

سأتابع في وحدتي لوعتي ..

وأبحث عن مأوى ،

يحمل ذاكرة متعبه ..

*****

الجزء الأول

ترعرت في نمط مختلف من الحياة في قرية من قرى فلسطين الصغيرة بمكوناتها الوجودية، ولكنها كانت في نظري وضمن ذاكرتي الصغيرة حدود الكون على ضيق مساحتها التي اعتقدت أنها تتسع لسكان العالم كله، وإن الحياة فيها بدأت ومنها تنتهي.

لماذا كان يستقر في وجداني وذاكرتي هذا الإحساس والشعور الذي يشكل قاعدة المفاهيم التي تبرعمت عبر سنين الحياة، فكبرت وتكاثرت وتشعبت؛ لأنني- باختصار- كنت أجد فيها إنموذجاً لا يختلف عن النماذج الأخرى في تفاعلاتها الاجتماعية مع فارق بسيط، هو أنها- بالنسبة لي- نقطة الارتكاز الكبرى في المفاهيم والمعتقدات والحياة العربية كلها، وإن هذه القرية الصغيرة هي صورة مكبرة ومصغرة لإنموذج حياتي قد يكون واحدا ومتشابها على امتداد رقعة الوطن العربي كله.

ولكن هذه القرية كانت تحت الصفر بكل معنى الكلمة في أحوالها وظروفها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ومع ذلك فالإحساس العالي والمتدفق بالكرامة والعزة الذاتية يعد العامل المشترك في التكوين النفسي العام لأهاليها وسكانها رغم ذلك، ورغم الفقر والمرض والتخلف الذي كان سمة

عامة لأحوال الناس في قراهم في تلك الفترة، إلا أن مقومات الوجود في الإنسان تتجلى في مشاق التحدي وإثبات القدرة على التحول، ولم يكن بإمكان هذا التحول أن يحدث دون حراك يضع الحياة والزمن أمام تحديات الإرادة، فلا النجوم ساكنة في سمائها ولا الحياة والرياح هادئة في بحارها وفضاءات الكون والإنسان الذي جعل وتيرة الحياة إلى أعلى مستوياتها لم يكن يستطيع إلى ذلك سبيلاً، ولو لم يكن هو الإنموذج الذي اختاره الله من بين مخلوقاته ليهبه كل مكنونات الخلق وأسراره، ولعل ذلك ما جعلني استشعره في لحظات الأحوال والظروف الصعبة القاسية التي مررت بها، لدرجة أنني كنت أستعيد شريط الذكريات في مراحل الحياة وتحولاتها، وأتساءل في نفسي: هل أستطيع أن أكون بنفس القدرة والطاقة والكفاءة التي تجلت في تلك اللحظات الصعبة لو قدر لي أن أعيد الاختبار الذاتي بإعادة التجربة أو المواقف الصعبة ذاتها؟

ربما لو كنت أعلم بما سيحدث لما تمكنت من استجماع الطاقة والقوة النفسية والحركية المطلوبة، ولكن تلك المراجعة أوصلتني إلى الاقتناع التام بأن ما حدث قد حدث وأنه ليس بالإمكان أفضل مما كان في كل الظروف، وأن شيئاً خفياً، قد يكون وليد اللحظة يخلق في الإنسان طاقة وقدرة غير متوقعتين في مواجهة التحديات.

وأطل من نافذة الذاكرة على أهوال قرية صغيرة ضعيفة بائسة كانت مسرحاً للخوف والقلق والمرض ونقص الماء والطعام.. قرية لم يكن فيها جهاز راديو واحد.. أو جهاز تلفاز أو خط هاتف، إذن فهي معزولة ومغلولة ولا يربطها في العالم الخارجي إلا أقدام أهاليها الحفاة الذين يتجمعون في المساء في قيعان دورهم لانتزاع الشوك المتجمع في أقدامهم باستخدام أبر الحياكة تارة وملاقط خاصة تارة أخرى كان (النور) ماهرين في صناعتها وإعدادها وبعض هذه الملاقط كانت تستعمله النساء في اقتلاع الشعر الزائد من حواجبهن أو حتى وجوههن.

قرية بعض بيوتها الطينية.. تحت مستوى الأرض أعدت خصيصاً للسكن المشترك، فقسم منها زرائب للحيوانات وخاصة الغنم والبقر والقسم الآخر سكن لرب الأسرة وزوجته وأولاده، والفاصل بين الحظيرة وغرفة النوم التي هي غرفة الطعام والمطبخ والضيافة أحياناً جدار طيني مشيد من نفس مكونات الخليط الذي يشكل مادة البناء لمثل هذه الحظائر (المنازل)، وهو عبارة عن خليط من الطين الجير الأبيض (والقصول) الذي هو من مخلفات التبن الذي يعد من موارد القرية في مواسم حصادها التي كانت وافرة رغم ضيق المساحة المزروعة ووعورتها.

والنمط الآخر من البيوت كان فوق مستوى الأرض وهو عبارة عن غرف كبيرة مزودة بحمامات خارجية وتتكون في معظمها من طابقين الطابق

الأرضي مكان معد لإيواء المواشي والطابق الثاني هو عبارة عن سكن لأصحابها ويسمى هذا الإنموذج من السكن (العلية) دلالة على علوها عن الأرض والسمة العامة لها أنها متسعة أكثر من البيوت الأرضية التحتية، وأن ما تتجهز به من خوابي القمح والشعير والحبوب الأخرى لا يميزها عن غيرها من البيوت ولكنها تتميز بشبابيكها الواسعة والمتعددة التي تسمح لهوائها بالتجدد الدائم خلافاً لغيرها.

ولكن رغم ذلك فإن قاسماً مشتركاً يجمع بين الإنموذجين وهو أنهما في الصيف يمتازان ببرودة جيدة، وفي الشتاء لا تشعر بالفارق الكبير في دفء المكانين، هكذا كنت اعتقد أو لعل الأمر يتعلق بحرارة أنفاس الأفراد المتجمعين على (مصطبة) واحدة في المكانين بما تبقيه كوانين النار المتأججة بعبق دفء رائحة الجفت ودخانه وبعطر رائحة أوراق الزيتون وأغصانه التي تذكرك بالآية القرآنية الكريمة: "الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا".

حارس بفقرها وجوعها وتخلفها وأحوالها الصعبة المعقدة نظام اجتماعي صغير لنظام اجتماعي شبيه مكبر.. هي قرية ليست حديثة العهد وليست نقطة صغيرة على خارطة فلسطين فقط بل هي من أقدم القرى الفلسطينية الكنعانية التي شهدت دوران عجلة الزمان المتفاعل في مكونات المكان.. والشواهد على حضورها التاريخي العميق أن حجارتها وأشجارها ومساجدها وحتى قبورها تتجمع في لغة الحضارة الكنعانية القديمة لتعبر عصر الرومان،

وأروقة الزمان كله فحين قلت إن ذاكرة خصب الطفولة لدي جمعت بين صورتين، فلأنني أكاد أجزم بأن الحجارة الأثرية الكبيرة التي صادرتها قوات الاحتلال بأساليبها المعهودة حيث اختفت من وسط القرية القديمة بشكل مفاجئ ،واقتطاع الصخرة الكبيرة من جسد صخورها المنحوتة منذ العصر الروماني والتي تسمى "الدست والباطن" وهي أغلب الظن معصرة للخمور كانت تقع على مقربة من البرك المنحوتة في عمق صخورها بمساحات كبيرة في المنطقة التي كانت ذات يوم كروماً للعنب الذي يجعل من هذه مخازن للخمور في ذلك العصر الروماني البعيد الذي يقابله على صفحة التاريخ الأخرى أشجار الزيتون العظيمة المسماه (بالرومية) نسبة لذلك الزمان..

أجل حملت الطائرة القطعة الصخرية الكبيرة بعد اقتطاعها من جسد الأرض الصخرية ونقلتها إلى مكان غير معروف داخل كيان الاحتلال.

ثم فرضت سلطات الاحتلال بعد ذلك كله منطقها الاستعماري الاحتلالي العجيب حين حاصرت ما تبقى من هذه الآثار بحزام استيطاني يأخذ في طريقه الأراضي الموصلة إلى أصبع أرائيل المغروس في خاصرة الوطن كأنه لسان الأفعى المتحفزة للانقضاض على ضحيتها، أو كأنه أنف صقّار القبور الذي يبحث عن ديدان الأرض ليحولها نبيذا يشربه المستوطنون من دماء الضحايا فيعتقدون أنه أكسير الحياة الجديدة لبعثهم المزعوم فوق أرض لم يعدهم بها إلا قراصنة البحار وتجار الدماء والحروب، فظل زعمهم مردوداً

وكذبهم مفضوحاً، ولولا سواد الليل ما استأسدت الضباع ولا تكالبت الذئاب على الفريسة.. فالعتمة وحشة المكان والزمان معاً.

كان أبي بسيطاً يلتصق بمحراثه في الأرض، وكان لنا بيت فوق سطح الأرض، يسكن بزواياه وخباياه في وجداني كما كنت أسكنه وأشغله أنا وأخوتي من قبل ومثل كل الناس في هذه القرية كانت لنا أيامنا، ولياليا وأحزاننا، وأفراحنا وكان ما يسرنا قليلاً، وما يحزننا أكثر؛ لأن خطاب المسؤول لم يكن موجهاً للعقول بقدر ما كان موجهاً للظهور وأحياناً للصدور، والسياط وحدها كانت تخط اللغة التي وجدها أصحابها ملائمة، لتثبيت دعائم النظام واحترامه.. وأحياناً يتجاوز الجلاوزة، ويختطون لأنفسهم لغة أشد وأظلم، فتصبح أقدام الخيل التي ترسم حذواتها على أجساد الضحايا وسيلة لفرض الهيبة والسطوة والنفوذ.

والطفولة ليست وحدها الشاهد الوحيد.. بل ان ما يشهد على ذلك أيضاً أن اقتحام أحذية الخيل لمخيلاتنا الصغيرة، جعلنا نتشكل أو نتجمع في عباءة الرجولة، وهكذا يحلم الصغار دائماً بأنهم كبار بالصدفة... أو هكذا كانت تضعنا التحديات أمام مخاطر الاستمرار في أحلام الطفولة. وما كان يحدث لآبائنا.. من بساطير العسكر، وسنابك الخيل، كان يتجمع في الذاكرة ويتعملق في الوجدان الذي يحرك فينا صور الرجولة المبكرة.

لماذا يحدث هذا؟! تساءلت عندما أفقت من نومي مذعوراً، وقالت لي سيدتي الأولى: يا ابني مالك؟! "قوم" قامت القيامة، البلد مخبوصة.. شوف لي أخوك وين؟ وطبعاً وبسبب الرغبة في التحول المشروع، وفتح آفاق جديدة للحياة كان والدي قد غادر البلاد على رأس مغامرة العمل في الخليج، فعبر صحراء وراء أخرى، حتى تمكن من الوصول إلى الكويت في أوائل الستينيات، ويومها كنت لم أتجاوز الحادية عشرة من عمري، إذ إنني من مواليد العام 1951 في اليوم السابع عشر من فبراير "شباط".. نهضت على صوت أمي، وإلحاحها في البحث عن شقيقي الأكبر الذي كان في مكانة رب العائلة، ومتحملاً لمسؤولياتها في سن مبكرة جداً.

وقفزت من على سلم الدرج دفعة واحدة كالعادة، وتسلقت أسطح الدور البسيطة المطلة على ساحة وسط البلد، وزواريبها الفرعية، ورأيت أناساً أغلبهم كبار في السن بلحاهم البيضاء يتراكضون أمام فوارس الخيل التي تبدو أقدامها وهي تشب على أجساد الضحايا، وكأنها أقدام كلاب وحشية ضارية مدربة على ذلك، في حين أن جمال ظهورها الانسيابي لم يزل يداعب مخيلتي حتى هذه اللحظة.. وتلك الخيول بالطبع لم تكن تتغذى على الشعير فقط بل كانت تأكل مكعبات السكر التي يستخدمها الفلاحون لتحلية الشاي، وكانوا يقدمونها طوعاً وكرها لهذه الخيول، فلا علاقة لأصحابها بظروفهم، وعوزهم، وعليهم إعداد الموائد العامرة بالصيصان البلدية، الطعام المفضل

لهؤلاء السادة الذين يأتون بين الموسم، والموسم إما لتحصيل الضرائب، وببطش القوة، قوة الخيل والفروسية، وإما ليقودهم حظ الأهالي العاثر، لاستقبال ضيوف سفهاء، ليسوا على الرحب والسعة، ويغتصبون طعامهم بوقاحة استشعارهم بقوة وظائفهم السخيفة، فمرة هم لا يشربون الشاي ويشربون القهوة، ومرة هم لا يأكلون البيض، ويطلبون الصيصان البلدية والحمام بألسنتهم، وإن تعذر على صاحب البيت تأمين ذلك يركلون زاده المقسوم بأرجلهم، ويخرجون ولا يخرجون، وربما يذهب المسكين ليحمل نفسه ديون ضيافتهم المقيتة.

نظرت في كل اتجاه.. ولم أكن لأفوت الفرصة على نفسي، فهي تكبر وتكبر معي طفولتي ويكبر معنى الذي يحدث بكل أسف، فالتقطت حجراً شعرت بأنه يملأ يدي، وقذفت به ظهر ذلك الوغد الذي حاول أن يشوه صورة الفرس الأصيلة في ذهني، وذاكرتي، وهو يدفعها دفعاً لمطاردة أناس بسطاء، لا ذنب لهم إلا أنهم معزولون عن العالم كله، وقدرهم أن يدفعوا الضريبة على أحذية الخيل، وأن يقدموا للخيول سكرهم، وأن يطعموا بطون الطغاة صيصانهم، وأفراخ حمامهم، الذين يتمنون لو يستطيعون تذوقه لحماً شهياً حرموا أنفسهم منه، حتى يبيعوه مقابل دراهم معدودة تسل مكانتها في شظف عيشهم.

ذلك الثعبان الذي يعتقد بأن الناس أمامه كالفئران أو أقل شأناً.. وما تيقنت أني أصبته، وأنه قد تدحرج من أعلى ظهر الفرس متهالكاً نحو الأرض، حتى بدأت أقفز من ظهر بيت لآخر، وما أن وطأت قدماي الأرض، حتى انطلقتا في الريح، تقطعان المسافة باتجاه البلدة المجاورة.

هذا جزء من اللحظة الحاسمة، قلت في نفسي: على المرء ألا يكون متلقياً في كل الأحوال، بل عليه أن يكون مصدراً للفعل، أو القول أو أي شيء آخر. وتساءلت لماذا لا يصرخ هؤلاء العبيد في وجوه القراصنة الذين يستلبونهم كرامتهم وحريتهم...! وكانت الأسئلة تتصاعد والأحداث تجري والسنوات تمر، ولم يتبدل الكثير في ما يتجمع في ذات الإنسان، فالوجدان مرآة عاكسة لانكسار الكرامات والإرادات، والاستبداد يجد له مرتعاً في غياب روح المبادرة ومناخها الصحيح، وبدأ عقلي يتفتح على أشياء كثيرة تسير من حولي، وأيقنت أن الكرة الأرضية أوسع من حدود قريتي الصغيرة، وأن العالم من حولنا يعيش ظروفاً هي ليست بأفضل من ظروفنا، وأن القرية الصغيرة هذه تراها وقد اختزلت تشكلات هذا العالم، كأنها صورة مصغرة لنهايات لا تراها العين المجردة، أو حتى "المقراب" العملاق من وراء النجوم أو البحار وهي اليوم ترى بكل تفاصيلها الدقيقة عبر الأقمار الصناعية، شأنها في ذلك شأن العالم كله الذي تناهي- أيضاً -إلى قرية صغيرة، ولكن ليس

على سبيل التصغير الإنموذجي، بل على مستوى التصعيد الحضاري، الذي يحقق للإنسان جهداً وتفوقاً على الكون، وذاته والأشياء من حوله.

كانت الضربة في الظهر، وكنت أفضلها في الصدر، ولكنها أصبحت موضع تندر الناس الذين أثقلت عليهم غزوات هؤلاء، فأحسنوا اتخاذها وسيلة للخلاص من عبء الزيارات المتكررة، لضيوف لا يفهمون تقاليد الضيافة، ولا يقيمون وزناً لمشاعر الناس وأحوالهم البائسة، وليتهم كانوا ضيوفاً بمعنى الكلمة، فالمضافة في وسط البلد الذي اعتاد أهالي القرى ارتيادها في طريقهم أو عبورهم ليلاً أو نهاراً، كانت مفتوحة طيلة الوقت، وتكفي بما يخرج الأهالي من طعام وشراب، لتعبر عن كرم أهالي القرية المتجذر في نفوسهم من القدم. ونتيجة لذلك تنامى لدي شعور طاغ بالعزة والكرامة، وبدأت القيم والمعتقدات تتموضع أماكنها في ذاتي المتجذرة في حب المكان، وفي التفاعل مع كل مكوناتها، وظلت الرغبة تجتاحني للتعرف على الحياة أكثر وأكثر، ومعرفة ما يدور حولنا باستمرار، وهناك في الوقت ذاته أسئلة تتصاعد في الذات، عن ماهية الكون والأشياء، ولا تلقى الإجابات الشافية رغم محاولات استنباط الإجابة، وكان الطلاب زملائي يتجمعون للتدرب على قراءة القرآن، وحفظه، وتجويده، وكانوا موضع تشجيع دائم من الأهل والمدرسة، ولا أدري السبب الذي كان يبعدني عن الانخراط بجدية في هذا الاتجاه، رغم محبتي لسماع القرآن الكريم وافتتاني بقدرة بعض هؤلاء على تجويده، وإتقانهم لذلك

بأصواتهم العذبة، وتموجاتها الانسيابية، المعبرة، فيما حباهم الله به من قدرة على تجويد، وترتيل آيات الذكر الحكيم.

ووجدت نفسي مشدوداً إلى الغناء وخاصة جانب التراث الشعبي فيه، وهائماً في بحور الشعر وقصائد الشعراء، التي اكتشفت في نفسي القدرة على حفظها، وترديدها، وإلقائها، بالشكل الذي لفت انتباه من حولي من الأهل، والأصدقاء، والمدرسين، فكان لهم الفضل الأكبر في حجم العصف الذهني والوجداني، الذي جعلني بلا تردد أبحث في بطون الكتب المتوافرة، عن مزيد من المعرفة، و الاطلاع، لكي أتزود بوقود المناظرات والمسابقات العشوائية وطاقاتها، التي كان ينظم لها على مستوى المدرسة، والبيت، والحارة، وكثيراً ما كنت أدخل مسابقات شعرية مع الصف بأكمله، إذ أصبح لدي مخزون هائل من أبيات المسابقات الشعرية.. ومنذ ذلك الوقت بدأت علاقتي مع الشعر تأخذ اتجاهاً آخر، لأنني- وعند ضغط أعداد المبارزين الكثر- كنت أضطر لارتجال أبيات شعرية بشكل تلقائي، فاكتشفت القدرة لدي على ذلك، واستشعر بعض رفاقي ما لدي من بوادر موهبة شعرية، كانت موضع اهتمامهم وتشجيعهم المستمر، وأذكر أنني قرأت عليهم قصيدة مكونة من سبعة أبيات شعرية لا أذكر منها سوى مطلعها المرتبط بفتاة كانت قد شدت بجمالها الأنظار، وكنت واحداً ممن افتتنوا بجمالها، وقوامها الرشيق، ومنذ ذلك الوقت تعودت ألا أنشر قصيدة واحدة قبل قراءتها أمام الأصدقاء، ولا أدري

سبب ذلك على الإطلاق؛ أهو الأمر المتعلق بعادة لازمتني منذ الصغر، أم أن الشاعر تظل لديه الرغبة في معرفة صدى أعماله وثناء الآخرين عليها؟ قد يكون ذلك هو السبب غير أنني كثيراً ما كنت أتقبل ملاحظات الأصدقاء، بصدر رحب، ولم يكن المديح والثناء هو ما أتوقعه فقط؛ لأنني أقوم بإخضاع القصيدة لفترة محددة من المراجعة، والتنقيح، وأجتهد فيما قد لا يجتهد فيه الآخرون، إن هم خجلوا أو عجزوا عن ذلك.

ولقد تولدت عبر التراكم الكمي، والزمني، لدي قناعات مستخلصة من ذلك ولعل في مقدمتها ما يلي:

1. القصيدة هي التي تفرض زمانها ومكانها وشكلها ومضمونها وليس الشاعر.

2. الموقف الشعري أو حالات الإبداع، طقوس لها مقوماتها، وسماتها، التي تختلف من شاعر لشاعر.

3. القصيدة استنساخ وجداني، قوامه المحاكاة، وجناحه الخيال، وفضاؤه الحكمة، والإعجاز والقول الحسن.

4. الوظيفة الأساسية للشعر أن يكون شعراً، وهو ليس رهينة لحقبة زمنية معينة، بكل ظروفها، ومعطياتها.

5. الشعر، والموسيقى، صنوان للتجربة الإبداعية في الذات البشرية، فلا يشرف الشعر أن تكون مهتمة الإمتاع فقط، بل هو جانب حيوي من العلاج الروحي، ومخزون هائل من الطاقة المتجددة للذات البشرية شأنه في ذلك شأن الموسيقى، والفنون الأخرى.

6. لا أومن باللون، والطعم، والرائحة، فالماء أهم عناصر الحياة لا لون له ولا طعم ولا رائحة، والشعر هو الشعر، كما هو الماء هو الماء، والهواء هو الهواء، ولا شيء غير ذلك، وإن هذا المفهوم- بالطبع- يجعلني مأخوذاً بحكاية الإنموذج، والأسلوب الشعري؛ لأن الخروج من المجال الحيوي للقصيدة، يجب أن يقود الشاعر إلى أجواء قصيدة أخرى، فلكل قصيدة ظلالها، وأبعادها، ومعالمها التي تشكل الحالة والخصوصية، تماماً إذ لا يجوز الاستنساخ الشعري، الذي يأتي بالتشابه الأسلوبي إلى حد التطابق.

7. أقف حائراً أمام ما أسموه "تحديثاً، أو حداثة"، أو ما قبل القصائد التي كتبت قبل ألف أو ألف وخمسمائة عام، والقصائد المحدثة فأجد الفارق والفجوة الهائلة بين ماض قريب كأنه يعيش فينا وبين حاضر مغيب، وبعيد، يهرب من ذاته ومن الآخرين.

8. ثقافة الشاعر، هي ثقافة عصره، والعصور الأخرى، ما استطاع اليها سبيلاً؛ لأنها مرآة النص الشعري، وخلاصة المحتوى الوجداني، لقدح زناد

الفكـرة، وفـتح شـهية العقـل البـاطن، فـاللاوعي الشـعوري، مكنـون الحالـة الإبداعية، في استحضار ذاته التراكمية في الوجدان.

9. إن سمـات القصـيدة مـن سمـات الشـاعر؛ لأنهـا وليـدة كـل إرهاصاتها ومكونات نفسه، فبعض القصائد تراها محاطة بإطار نفسي حزين، أو مهزوم، ونصها الآخر مناط بوشاح عبادة الذات، ليكرس الحالة الذاتية، التي تصبح المقياس الأوحد، لعلاقته بالأشياء من حوله.

10. لا ممالك في الشعر، ولا أمراء، ولا حتى جمهوريات، وقد افلح الأولون عندما كان لهم سبق تقديم القصائد والشعراء بمسميات تعطيهم جانباً مـن حـق التـألق الشـعري، وقـد أخفـق الـزمن الـراهن، الـذي اسـتراح لرتابـة التنسيب الإبداعي في جدوله الذهني، المتعطل، عن الحركة، بسبب موروث الركون إلى الحالة، والتخلف وراء حجاب الأسماء الموهوبة.

ولقـد كـان لي بدايـة مـع الشـعر، ومـع الكتابـة بوجـه عـام، وكنـت قـد احتويت أشيائي.. قوتي، وضعفي، وبدأت أخوض التجربة، التي صعدت روحها تماماً، منذ البداية وأمام التحديات.

سـقطت فلسـطين كلهـا في أيـدي الصـهاينة المحتلين، وسـقطت القـدس، والجـولان، وسـيناء، ودخـل المحتلـون الـذين اسـتوطنوا الثقافـة قبـل اسـتيطان الأراضي، والبيـوت، والـذين اجتـاحوا الأفكـار قبـل اجتيـاح البـلاد، والعبـاد،

لذلك أصيبت عقولنا بتشوهات خلقية، ما زالت مستمرة بأثرها حتى الآن، وأصيبت أوضاعنا الثقافية بشلل الرعشة، والجنون الذي يتجمع في "الأنا" المتضخمة إلى حدّ الانفجار.

ومع أن المقاومة، عريقة وشرسة، إلا أن خيانة الأعضاء، أخطر من خيانة أدعياء النبوة، رغم أنهم لم يطالبوا الناس بعبادتهم، أو الصلاة لهم، على سبيل العلم والمعرفة المتوفرة.

سقطعت البلاد، وسقطت القدس، وكنت قد انتقلت وقتها من استعجال لاستعجال آخر، ولم أعد أكترث بالتفاصيل الدقيقة، التي أسقطها حول المكان والزمان، فلم أتحدث عن جوانب أخرى مهمة في حياتي.. وأهملتها؛ لأن المهم الذي تراه مهما قد يراه غيرك مملاً.. ولم أتحدث عن الرموز التي احتوتها ذاكرتي، في ذلك المكان، وما أكثرها، وما أعظم شأنها، لدرجة أنه يراودني إحساس بين الحين والحين، من التمني، لأقول في ذاتي كلما شعرت بأن الرغبة تجتاحني لكتابة النص الروائي: ليتني وهبت هذه المقدرة!

وإذا قدر لي أن أختار إنموذجاً واحداً من هذه الشخصيات، مع أن لكل إنموذج مكوناته الخاصة به، فإنني أختار ذلك الرجل الذي ظلت في عظام صدره البارزة مشرعة للريح، صيفاً وشتاءً، كأنها في حالة تحد مع الحياة، والوجود، مثلما كان هو في ذات الحالة ليس مضطراً لقدح زناد حجره

الصواني، إلا مرة واحدة في الصباح، حيث يشعل سيجارته، التي لا تنطفىء أو تختفي من فمه إلا أواخر الليل، وقبل أن ينام على وجه التحديد، هذا إذا كان ينام بالفعل، لأنك ما كنت لتفارقه في أواخر الليل، بعد سهرات القرى، التي كثيراً ما تطول، خاصة في فصل الصيف حتى تراه في الساعات الأولى، قبل بزوغ الفجر، تسبقه سيجارته المشتعلة إليك برائحتها، ودخانها المنتشر في المكان، والتي تدل عليه، قبل أن يدل على نفسه، لو بادر بالسلام من بين شفتيه وبقايا أسنانه التي تقبض عليها، كما يقبض النمر على فريسة شهية..

هذا الشيخ الكبير، المسن، كان أحد المعمرين في قريتنا، كان فيها المعمرون يتمتعون بقوة الحركة، والذاكرة، وكانوا المصدر الوحيد المتاح لمعرفة التاريخ الشفوي، لمن سبقهم من أهالي البلاد.

وعلى خلاف ما هو واقع الآن، فان نسبة الشيوخ في المجتمع الفلسطيني، بشكل عام، كانت نسبة مرتفعة، قياساً بنسبتها الحالية وكان ذلك دليلاً، على سلامة البيئة، ونقاء الطعام من ملوثاته الكيميائية، وبساطة الحياة رغم تعقيداتها، ورغم الأحوال الصحية الهابطة، وقد يعتقد بعض الناس أن الحكم على مثل هذه الملاحظات يأتي في سياق الحنين إلى الماضي، لكن الحقيقة الواقعة تبرهن أن نسبة متوسط الأعمار، هي أعلى من نسبتها الحالية، في ذلك الوقت. رغم أن العكس هو الذي يجب أن يكون في ظل التقدم التكنولوجي في مستويات الحياة.

كان صالح واحداً من المعمرين، الذين شهدوا أحداث التاريخ منذ العصر التركي، وعاشوا ظروف النكبة بكل تفاصيلها، وحقائقها، وكان مثله مثل الآخرين في القرية يلتقط الأخبارمن المذياع الذي يتجمع حوله الناس، ويبدي اهتماماً زائداً في تفاعله مع الأحداث وتطوراتها.. وذات يوم كان له رأي مخالف في موقف الإجماع الشعبي، من تصريحات الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، لا لأنه يؤمن مبكراً بما آمن به الآخرون، في وقت لاحق، ولكنه كان يخضع الأحداث والتطورات، والواقع المعيش، لمنطق مغاير ولتقدير لا تنقصه الحكمة، كأنه يريد أن يقول لنا، الواقع السياسي شيء، والتمنيات شي آخر، وأن رهن المستقبل المنظور بالرغبات، والتمنيات مخالف للحقيقية، وهو انحياز للذات المتخيلة، يوقعها في مزيد من الوهم ومزيد من الخداع.. لذلك سمعته يقول: الرجل قال ما يظنه صواباً، ولم يقل ما يتمناه ويرضيكم، في غرور ذواتكم فالخداع النفسي الذي تعيشونه على جناح أحلامكم، لا يثير البهجة ولا يبعث على الاطمئنان، لأن الواقع شيء والامنيات شيء آخر..

وتتسارع الأحداث والتطورات وتندلع المظاهرات في مدن الضفة الغربية وبلداتها.. ويستمر الوضع في توتراته، ويستشعر الغزاة المحتلون الفرصة مواتية لهم للانقضاض على الفريسة، المنهكة، بفعل ما تعرضت له من إجهاد طويل، ويكون من نصيب هذه البلدة أن تخضع للاجتياح بعد أن كانت ضمن المربعات التي سقطت بالانسحاب المفاجئ، فيتقدم الغزاة نحوها من

الجهة الشرقية، فتدخل سيارة واحدة مدنية قيل إنها سيارة مخابرات، وسيارة عسكرية، قيل إنها "مجنزرة" آنذاك، ولتحتل مجموعة القرى الواقعة في الشمال الغربي لمدينة نابلس.

كنت في تلك الأثناء أقف على حافة الطريق المؤدية إلى وسط القرية، وكان الأهالي هائمين على رؤوسهم، بعد أن تواترت الأنباء عن سقوط المدن الفلسطينية واحدة بعد الأخرى، وبعد أن بدأ الذهول يسيطر على سلوك الناس، وتصرفاتهم، وبدت الوجوه في مجموعها شاحبة صفراء.

ما الذي يحدث في هذا الزمن العربي الرديء، المضيّع بين أوهام الطغاة، وأحلام الغزاة؟! لماذا خرجت الأفاعي من جحورها، وابتلعت مياه المحيطات وحجارة الأرصفة، والطرقات، والتفّت حول الأعناق؟!

سقطت الأحلام الوردية..! وتمخضت الجبال، والنكبة، فأنجبت هزيمة حزيران، وأصحبت النكسة عنوان المرحلة، والزمن الراهن.. وقيل إن الخيانات ترعرعت في أحضان الأحكام العرفية، والفساد الأمني، والحريات والديمقراطية المسلوبة..

تذكرت السياط، وفرسان الغفلة، والحمام وأفراخ الدجاج، التي كانت تشد أنظار الأطفال المحرومين على موائد اللئام، لتستقر في بطون قراصنة

البحـار، والأنهـار، والأوطـان، مـن عبـدة الـذل والهـوان، يسـتدفئون عظـام ضحاياهم، ويلوكون لحومهم أمواتاً وأحياء..

وبدأت الصور تتراكم في ازدحام الزمن الصعب، لماذا تحضرني كل هذه الذكريات في لحظة ليست من لحظات التداعي؟! وفجأة يعلو صوت رصاص جنود الاحتلال، ويفر من يفر، وأجد نفسي وراء الجدار الاستنادي، للطريق الرئيسي، بين أزيز الرصاص على الأرض، وعواء الطائرات المسيطرة على الأجواء.

ما الذي يحدث يا فتى.. قالها وكانت المفاجأة الأخرى التي لم أتوقعها قط، إنه الشيخ صالح يسير وراء الجدار بصدره المكشوف، وسيجارته المشتعلة، و (دوكانه) الذي كثيراً ما كان يهز به في وجه أطفال القرية وهم يلاحقونه، ويمازحونه، ويتقربون منه..

قلت له: أهلا عم صالح.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟!

قال: الذي جاء بك أنت..

قلت له: أنا في المكان لأن جنود الاحتلال دخلوا القرية واحتلوا القرى الأخرى، وسقطت المدن والبلدان والبلدات الفسطينية واحدة تلو الأخرى،

قال: والجيوش، والأسلحة، والاستحكامات، والعسكر،

قلت له: ذهبت الجيوش والأسلحة وبقيت الاستحكامات، والخنادق، وآثارهم تدل على انسحابهم المبكر..

لم تطلق رصاصة واحدة.. ولم يحدث قتال قط، والذي حدث فقط، بعض بطولات فردية في مواقع مختلفة ليست عندنا..

والطائرات المغيرة استطاعت أن تدمر الطائرات الجاثمة، على الأرض.. وانتهت المعركة في بدايتها..

ليتني لم أعش حتى أسمع هذه الأخبار.. ليتني مت قبل أن آشهد هذه المأساة.. قالها الرجل وهو ينظر من حوله ويتطلع ذات اليمين وذات الشمال، ثم رفع يديه إلى السماء وأخذ يدعو ببكاء حار:

"ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا..

ربنا لا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا..

ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به..

واعف عنا واغفر لنا وارحمنا وانصرنا على القوم الكافرين.. ".

وخيمت أجواء اليأس في كل مكان، وتكشفت الحقائق، وتراجع الغيم، والضباب، الذي في غير موعده واستقرت الحال على الهزيمة، فجاء عصر

آخر من البكاء، والحزن، والدموع، لكن الحياة قاتمة سوداء.. والناس تدور في حلقة مفرغة، لا ماء، لا هواء، لا ضياء.. وعليك أن تخرج من العتمة إلى النور.. عليك ان تتنفس دخان الهزيمة حتى الموت.. أو عليك أن تشرب مياه المحيطات في أوطان المحيطات المهزومة.

هذه نكسة، وتلك نكبة..

وما بينهما جلس القبر على جبينك..

فكتب الزمن عليك شهيداً وهبته النكبة شهادة ولادة متأخرة، وضعت على جبينه النكسة شريطاً من العار المجلل، برائحة دمه المغدور..

لأنه ما مات بفوزه ولم يفز بموته قط..

يا صديقي الذي لم يكن في عداد الضحايا..

ولم يكن في عداد السبايا..

هل عرفت الطريق إلى القدس، نحو السماء الأخيرة..

أم أنت في جنة الخلد ترنو إلى سدرة المنتهى..

تبارك وجهك أنّا تبديت..

وطوبى لك الآن أنى تكون..

وكيف تكون..

أظن وإن خانني الظن أنت هنا أو هناك شهيداً شهيداً شهيداً..

تعاليت حتى توحّد فيك الزمان وطاب المكان ..

بعد أيام قليلة مضت بدأ الناس يفكرون في أحوالهم، وأوضاعهم، ويتطلعون إلى إيجاد وسيلة ممكنة للاتصال مع ذويهم، وأقاربهم في الخارج.. وأخذت الشائعات تلعب دورها المعهود في مثل هذه الأوضاع، حتى أن بوادر حرب نفسية أخرى كانت قد ظهرت من جديد، هدفها القريب التسريع في هجرة أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين عن أرضهم، وتراب وطنهم، وهدفها البعيد جعل القلق، والخوف، والتوتر يأخذ مداه في تفاصيل الحياة اليومية الفلسطينية، إلى أبعد قدر ممكن حتى تستطيع سلطات الاحتلال فرض هيمنتها على المناطق المحتلة.

وكان عدد كبير من أبناء الجالية الفلسطينية في الكويت، قد سارع للحضور لترتيب أوضاعهم الأسرية، والحياتية، في ظل الأوضاع المستجدة، ولا أدري هل كان من سوء الطالع، أو حسنه، أن والدي –رحمه الله– كان واحداً من هؤلاء القادمين، وهو الذي كان قد وجد في الكويت ضالته في الحصول

على عمل مناسب منذ بداية الستينيات، لكنه لم يتمكن من الحضور المبكر قبل أن تفرض سلطات الاحتلال إجراءاتها وإغلاق الجسور، وكان شقيقي الأكبر قد غادر هو الآخر قبل النكسة عام 1967 إلى الكويت، ولأنني لم أرغب في مغادرة البلاد –حتى للقاء والدي الذي ينتظر قدومنا في عمان– حاولت أن أتهرب من مواجهته تلبية لرغبة والدتي وجدتي في ذلك، دون جدوى، فأشرن علي بالخروج لمدة أسبوع فقط، واصطحاب شقيقتي التي كانت على وشك السفر للالتحاق بخطيبها قبل العدوان.

ولأنني عائد بعد أسبوع على الأكثر كما توهمت، فإنني لم اصطحب معي حقيبة، ولا حتى غياراً آخر لملابسي رغم قناعتي بأن المغامرة صعبة، وأن مكنة عودتي ستكون خاضعة للظروف التي قد تتغير بين لحظة وأخرى.

خرجت إلى عمان وبقيت في حالة اضطراب وقلق، لا ينقصه التوتر، حتى تيقنت بأن عودتي أصبحت من سابع المستحيلات.

وحاول والدي استخراج جواز سفر لي، وتشجيعي على السفر معه إلى الكويت، لكنني بقيت مشدوداً إلى رغبتي في العودة إلى البلاد، وفضلت الانتظار في عمان، على الذهاب إلى الكويت، فمكثت في منزل عمي أبو العبد، الذي حاول جاهداً إعادتي إلى صفوف الدراسة، لكن محاولاته كانت تواجه الفشل لعدم رغبتي في البقاء في عمان.. وحتى لا يكون موضع لوم من

والدي فإنه خيرني بين العمل والدراسة، فاخترت العمل، وكان أول عمل وظيفي أقوم به؛ عملت أميناً لمخازن شاي تابعة لتاجر كبير في عمان، كان عمي قد عمل لديه فترة من الزمن.. وقبلت هذا العمل حتى أستطيع كف مطالبة عمي لي بالعودة إلى صفوف الدراسة.. ولم يمض وقت طويل حتى علمت بأن نفراً من الشباب الفلسطيني يعد نفسه للذهاب تسللاً إلى البلاد، وكان قد فعلها آخرون من قبل ونجحوا في ذلك، فتعرفت عليهم وكنا ستة أشخاص والدليل الذي يعرف الطريق الذي سنسلكه عبر النهر.

وقد شعرت لأول مرة بارتياح بالغ وعظيم، ولم أكن أصدق أننا فعلاً قد حملتنا أحلامنا تلك الليلة إلى هذه المخاطرة على جناح المغامرة، غير آبهين بكل الصعاب، والعراقيل، التي يمكن أن تواجهنا أو تعترض سبيلنا...

وعند الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة، استطعنا ان نبلغ بالحلم مدى يبعث على التواصل والاستمرار ونحن نحقق النجاح والأمل، باجتياز النهر من أحد مواقعه الضعيفة، وما كان ذلك ليتم لولا الروح العالية التي أبداها الفريق في التعاون الذي حددت مواصفاته قبل العبور، والملاحظات التي أبديت حول الهدف الذي جمعنا، وهو محدد في مكنة العودة لديارنا، ونجاحنا في ذلك بأقل خسائر ممكنة، ولم يكن لدينا بالطبع قطعة سلاح واحدة، ولا أعتقد أنه كان من بيننا من يجيد استخدام السلاح أيضاً.

صعدنا من بين التلال المسماه "قطرات" وهي تلال الرمل على جانبي الشريعة، وكان السكون من حولنا يلف كل شيء، وفي سفح إحدى التلال كانت المفاجأة المذهلة؛ عظام.. جماجم.. أباريق شاي.. أحذية وبقايا ثياب لأناس لم أستطع حصر عددهم.. إنها- في كل الأحوال- مذبحة صغيرة أو كبيرة، وإن هذه الأطلال لا بد أن تكون لأناس حاولوا الرجوع والعودة مثلنا، فواجهوا مصيرهم على أيدي جنود الاحتلال، حاولت ان أتوقف في المكان، وأن أحيط بحجم المأساة التي حدثت لهؤلاء، غير أن الدليل كان قد لفت انتباهه ذلك فطلب إلينا التواصل والاستمرار في السير، وما إن بلغنا أسفل الواد حتى جلسنا لدقائق معدودة، عاد وأكد فيها الدليل، ما أشار إليه من قبل، بضرورة ترك مسافة متر أو مترين بين الشخص والآخر، وعدم اللجوء إلى التدخين تحت كل الظروف، وعدم التوقف عن السير بشكل منفرد.

وانتابني شعور بالقلق، ونحن نصعد التلة المقابلة، إذ صادفنا طريق ترابي، وبعض مرابض الآليات على صفحة التلة..

ترى! هل يخبئ لنا القدر مفاجأة أخرى؟! وماذا بوسعنا أن نفعل لو هاجمنا قطيع من الذئاب أو الكلاب الضالة؟؟ إننا لا نملك إلا أرواحنا وهي رخيصة في سبيل العودة إلى ذاتنا المسلوبة...

نعم إن هذه الطريق لا تؤدي فقط إلى حضن الوطن، بل هي طريق يجب أن تتحدد لها مسارات وأبعاد تقود إلى قلب الحقيقية..

فمن ركب الموج عليه ألا يخشى العواصف..ومن ارتضى الصعود عليه أ لا يتنازل أو يتهاون في قرارة ذاته.

وبعيدة هي السماء لكنها ترتفع بلا عمد..

وساكنة هي الأرض أو هكذا تبدو ولكنها تتحرك بلا توقف..

وعلى ما يمكن أن تظنه حقيقة قد يكون وهماً..

ولكن الحقائق لا تُخطىء ذاتها بقدر ما تخطىء حسن الظن أو سوءه..

أيتها السماء العالية..

أيتها الغيوم المتلألئة ..

هل سيتوهج قلب الكوكب الدري ..

أو ستغرس شمسنا شعاعاً في المستحيلات..

أيخرج هذا الليل من سواده وتنضج رغبة الجنون بلا تفاح الأجنة؟

كم سيطحننا هذا الغياب لو استمر طويلاً طويلاً..

علينا أن نكتب بمداد الدم وثيقة أحلامنا فاشهدي يا سماء..

يا أرض.. يا نجوم..

نحن جئناً من الشوق إلى الشوق..

ومن الموت إلى الموت..

وليس لنا غير أرجل صنعتها المعجزة لتعبر طريق المستحيلات..!

وعند الساعة الواحدة من بعد منتصف تلك الليلة أقلعت النجوم، وتوارت السماء، وبقي باطن الأرض يبعث لهيبه في صدورنا..إنها مجنزرات قوات الاحتلال، وجنوده، يطلقون النار علينا بغزارة.. ويسلطون أضواءهم نحونا..

قال الدليل: خذوا حذركم وانبطحوا أرضاً وليضع كل واحد منكم رأسه بين يديه.. وتشاهدوا على أرواحكم..

تقدمت جنازير الدبابات ببطء شديد وظل إطلاق النار على أشده، ورغم أنهم لم يواجهوا برصاصة واحدة لا نملكها، أو حتى نستطيع إطلاقها. إلا أنهم لم يتراجعوا عن متعتهم السخيفة في إطلاق النار حتى وصلت

الدبابات إلينا وسلطت (الجيبات) أضواءها على رؤوسنا.. وترجل أحدهم بحراسة اثنين آخرين ليبادرنا بالسؤال بلكنة لا تدل على أنه عربي:

"من أنتم"..

فرد عليه الدليل: نحن مواطنون عائدون إلى ديارنا.. وحين اطمأن بأننا لا نملك أسلحة طلب إلينا النهوض.. وصرخ في وجه الدليل: "من أين جئتم؟".

قال له الدليل: "جئنا من الأردن، وتراجع إلى الخلف وبقي السلاح موجها لصدورنا في أيدي الجنود الآخرين..وسمعنا حديثاً يدور بالعبرية لم نفهم منه شيئاً لجهلنا بهذه اللغة.. ثم أمر جنوده باستلاب كل ما نملك، من نقود، وساعات، وملابس، وأحذية، ولم يبق هؤلاء المرتزقة على أجسادنا إلا ملابسنا الداخلية، وأمرونا بالعودة إلى الأردن "حفاة وشبه عراة" وقال قائلهم: "ارجعوا إلى حسين، ولا تجربوا ذلك مرة أخرى" وبدأوا يطلقون النار من حولنا ووراءنا بكثافة وهم يتصايحون ويقهقهون..

كم مرة سأقول أدركنا اليأس في الصميم..

وكم مرة سأجد روحي مدججة بالأحلام البعيدة.

هذه محاولة للظهور على جسد القلب الملوع بحكمة التجربة والبلوغ..

مـن سيصـنعني في المعركـة حصـاناً علـى صـهيله ترتـل آيات الجهـاد المقدس..؟

من سيصنعني من الغضب الذي يكسر أجنحة من الويل ويقتلع أنياب الأفاعي...؟

وتلك مشيئة لمن شاء.. ولم تكن مشيئة كلاب البراري..

اصعد درجة إلى أعلى، ولا تنظر إلى قدمك السفلى.. وانظر من أمامك كلمـا اسـتدرت إلى الغـرب، والجهـات واحـدة ولكـن رائحـة البحـار هـي الرائحة..

ولا حول لك ولا قوة إلا بما بدأت..
وأتيت
فاصنع بديلك من رحيلك
لا إلى سفر مضيت
ولا إلى قدر قضيت
وربما يجتاحك الإعصار
أويأتيك من غيب المراحل مرحلة..
وتصعد في لحظة الانكسار إليها..
يميناً ويقيناً..

سيترك هذا المكان مسافة ظلي إليك..

ترى هل نعود؟!

وهل نلتقي ثانية في البعيد القريب..

وتراجع الليل إلى الوراء..

وسقطت قنبلة أخرى..

في المياه الضحلة

وأمطرت السماء إشارات تنوير مختلفة..

وسمعت أصوات الضفادع تعبر النهر

ويتردد الصدى..

أيها الحزن.. لماذا تتبعنا خطاك!!

وكان على الطرف المطل كتاب ولوحة أخرى

وبقيت الصفحة مفتوحة للخطاب

هجرت أوراقي ودفاتري..

وركبت ظهر الموجة الأولى إلى رمال الصحراء

سأتابع في وحدتي لوعتي..

وأبحث عن مأوى يحمل ذاكرتي المتعبة..

ووصلنا إلى عمان بعد مسيرة مضنية، إذ استطعنا أن نلف أجسادنا ببعض الثياب البالية القديمة التي قدمها لنا الأهالي.. وركبنا سيارة بلا أجرة.. كان صاحبها قد أذهله ما حل بنا، ومن رحلة العودة القسرية إلى عمان،

بدأت رحلة الحياة الجديدة التي فرضتها الظروف، ومنذ ذلك الوقت، أيقنت أن الإنسان الذي لم يكن له حق اختيار حتى اسمه منذ ولادته، ليس له القدرة على اختيار ما يريد وما يشاء في الحياة؛ لأن القدر له النصيب الأكبر في تدخلاته، التي ترسم الخطى وتحدد الاتجاهات.

وبعد مراجعة وتفكير عميقين، قلت في نفسي كما يقولون: "ذهبت السكرة وبقيت الفكرة" ومنذ ذلك الوقت قررت في ذاتي وقرارة نفسي، أن السبيل الوحيد للتواصل مع الحياة، هو الإصرار على الحياة.. والإصرار على الحياة ليس عاراً أو جبناً، لأنها كتبت علينا ويجب أن نعيشها ولكن في إطار القيم والقناعات والمعتقدات التي نؤمن بها.. ولم أكن لأتردد أو أقبل التردد في اتجاه أو مسلك رأيته مناسباً أمام الظروف ومداخلاتها ومنذ ذلك الوقت آمنت بأن الواقع واقع، والحلم حلم، وأن علينا أان نعيش في الواقع بلا خضوع أو خنوع.. وأن نذهب في أحلامنا إلى حواف العالم الأ ثيري دون أن ننسى أن لنا واقعاً نعيشه وظروفاً تحيط بنا..

علم عمي بأنني عدت منكفئاً على ذاتي بعد فشل المحاولة، وأنني آثرت أن أقيم في فندق وسط عمان، على أن أذهب لبيته الكائن في مخيم الحسين مخذولا، ومهزوماً؛ لأنه كان يرفض المحاولة من قبل أن تحدث، ولم يكن على دراية بما حدث إلا في وقت لاحق.

وبعد أيام قضتيها في حالة ذهول تام، أشبه بالذهول الذي حدث أثناء الكارثة التي أدت لسقوط البلاد في أيدي المحتلين، جاء إلى الفندق وطلب إلى العاملين إغلاق حسابي، وأصر على اصطحابي لمنزله، وقال أنا أعلم أن لا رغبة لك في الدراسة، ولكن بإمكانك العودة إلى عملك، ولقد تحدثت مع الحاج علي في ذلك..

لم يكن للحياة أي معنى في تلك الأيام.. ولم أكن أعاني من ضائقة مالية، فالراتب الذي أتقاضاه يصل إلى خمسة عشر ديناراً في الشهر، ومثل هذا المبلغ يفوق معدل رواتب الموظفين آنذاك، وكان والدي لا يغفل هذا الأمر من حساباته ويصر على أن يحول لي مبلغاً شهرياً، ويطالبني بالانتظام في دراستي من جديد.

وكانت الدائرة تدور والأيام تمضي ثقيلة، مملة، ورغم انخراطي في الحياة الاجتماعية الجديدة، إلا أنني بقيت أشعر بالفراغ الرهيب.. لا هدف.. لا دراسة.. لا قراءة.. لا كتابة.. لا شعر.. لا شيء.. لا شيء...

وظلت الأسئلة تراودني في الصباح وفي المساء: إلى أين؟؟ لماذا لا تقرأ أو تكتب..؟ لماذا لا تتعاطي الشعر في اهتماماتك؟ هل لديك اهتمامات بالفعل..؟ وإلى جانب الوجود الذي أصابني بشكله الدائم المستمر، أصبحت أكثر شروداً وتشتتاً وحيرة؛ لأن ما استقر في داخلي بثبات ورسوخ هو أن

الحياة لا قيمة لها ألبتة، وأن الكائن الحي فيها لا حق له في اختيارها، وهو فيها مسير، لا مخير، مهما حاول أن يعتقد خلاف ذلك.. بقيت على هذه الحال فترة محددة وبفعل التداعي المستمر والتفكير الدائم قادتني هذه الأفكار للتوقف أمام حقيقة الكون، والخلق، والقيم والمعتقدات والديانات... الخ

وقد يكون من فضل الله علي- سبحانه وتعالى- أنني توصلت مبكراً إلى ما هداني إليه قبل أن أصل لأفكاري في بطون أمهات الكتب الدينية والفلسفية، فوجدت أن المسلمات في مكانها الذهني والعقلي دون مساس، وأن الاجتهاد فيما دون ذلك حق، وأن الله واحد لا إله غيره، وأن الإنسان في حياته الدنيا مخير بقدر ما هو مسير، وأن العدل هو القناعة، وأن أعظم تجلياته تتبدى في البداية الواحدة المتشابهة لكل بني البشر؛ فهم يولدون بنفس الطريقة التي يموتون بها، فلا يأتي الحياة بشيء، ولا يأخذ منها شيئاً ثم تيقنت بأن الكينونة الأولى للإنسان في بطن أمه لا تختلف كثيراً عن كينونته الثانية في الحياة، وأن الخلاف الوحيد يكاد يكون أن الكينونة الأولى يتهيأ فيها لهذا المخلوق كل ما يحتاج إليه من أسباب الحياة وتصله من خلال الحبل السري، وأن الإنسان في الكينونة الثانية يجد ويجتهد في اكتساب ما يمكنه من الاستمرار في الحياة، ومثلما هو محاط بالهواء المشبع بالأكسجين والغذاء الذي لا يتناقص بفعل عدم فناء المادة، رغم التزايد المطرد في تعداد السكان، فإن كل ذلك -أيضاً -من مكونات حياته الأولى قبل ولادته.

وهكذا استرحت كثيراً للتوازن النفسي والنوعي الذي أحدثه كل هذا الحوار الداخلي لدي.. وكنت في الوقت ذاته أطالع عن كثب النشاط المتصاعد لحركة المقاومة الفلسطينية.. وحركة فتح على وجه التحديد، وسرني كثيراً أنني استطعت- من خلال أحد كوادرها الأوائل- أن أتعرف على مبادئ الحركة ومنطلقاتها وأهدافها.. وقد رأيت نفسي مشدوداً إلى برنامجها الوطني، وإلى أدبياتها المتقدمة على غيرها من التشكيلات التنظيمية والحزبية؛ فقررت الانخراط في صفوف الحركة، والتحقت بجناحها العسكري أواخر عام 1967، وما إن انتهيت من التدريبات العسكرية، حتى وجدت نفسي على خطوط القتال في القاعدة (70) قاعدة الشهيد منهل شديد، الكائنة على سفح جبل من سفوح جبال السلط قرب شلالات (رميمين) مع رفاق وأخوة مناضلين كان أصغرهم سناً شاب يدعى (حولي) نسبة إلى منطقة سكناه في الكويت، حيث كان أحد المتطوعين القادمين من هناك وأكبرهم سناً الحاج محمد، وهو شيخ مسن تعدى في عمره الستين عاماً، وكان من المناضلين القدماء الذين شاركوا في القتال ضد عصابات الأرغون وشتيرن والهاجانا، وكان آمر القاعدة أبو سمير من كوادر الحركة الأوائل، وهو أحد زملاء صديقي وزوج ابنة عمي "أبو إلياس" الذي قدمني لهذه الحركة وعرفني بمبادئها وأهدافها ومنطلقاتها..

ثم قضينا بعض الوقت في التدريبات اللازمة والاستطلاع والمشاركة في بعض عمليات الإسناد على نهر الأردن إلى أن بدت الأمور أكثر تجليا ووضوحاً.

حركة فتح.. حركة التاريخ العربي الفلسطيني الحديث، والمعاصر، ليست البيضة ولا الديك، ولم تكن دجاجاً لاحماً حتى، لو أرادها "موشيه دايان" على نحو ما شاء وتوهّم ولأنها الفكرة التي صفعت الهزيمة، أيا كان شكلها، نكبة كانت أم نكسة، فإنها الآية الكبرى للفلسطينيين والعرب والناس جميعاً.

هي العقيدة، والقصيدة، والبندقية المسيجة بضمان المنطق الجديد، الذي يضع القول في مستوى الفعل ويختم بالشمع الأحمر، دور الجدل البيزنطي ومجالسه وحاناته.. وقالت فتح كلمتها الفصل لا البيضة كانت ولا الديك، ولا الوحدة أولا أو الحرية. إن الوحدة والحرية نسيج واحد لكرامة الذات الإنسانية، وإن تحرير فلسطين هو بوابة العبور للوحدة والحرية معاً، والذي كان قبل كل شيء أن الفلسطينية هوية النضال قبل أن تكون شهادة ولادة، وأن التركيز على ذلك عبر وسائل الإعلام لا يشرع لأحد في أمتنا العربية أن يخطط لنفسه توجهاً إقليمياً مستغلاً بذلك حاجة الشعب الفلسطيني لتكريس شخصيته الوطنية المهددة، ابتداءً من غدر الانتداب وانتهاء بعهد الاحتلال، واستناداً عليه كان بلفور وزير خارجية بريطانيا آنذاك قد أعطى بوعده المشؤوم ما لا يملك من حق في وطن قومي لمن لا يستحق من اليهود

الصهاينة، لإنهاضه على جثث ودماء ودموع الضحايا وآلامهم التي لا حصر لها، وكانت جولدا مائير رئيسة وزراء الكيان المحتل السابقة قد تساءلت بأسلوب استنكاري : أين هو "شعب فلسطين" ؟ وأجابت: لا وجود له، ورددت: هذه أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

لكن الشيء الذي يبعث على الحيرة أن الحكومات العربية والتي تعودت استغلال الوضع، بدلاً من أن تتفهم (خصوصية التوجه الفلسطيني) وحقه في إظهار الذات المستلبة لم تفوت الفرصة فعملت على التنصل من كل التزام قومي، وراحت تبحث عن أسماء وعناوين تتمشى مع نهجها الإقليمي، واتخذت من الحالة الفلسطينية سبباً ومبرراً.

كانت الأنظمة العربية مشلولة بعد هزيمة حزيران، وكانت الحياة العربية في مستوياتها المختلفة مغلولة.. ولا هم للحكام وطبقاتهم إلا الاستحواذ والهيمنة والحفاظ على المكتسبات، فكان شعار هؤلاء في ذلك الوقت: "الأرض تعود والنظام لا يعود"، لذلك دخلت الأنظمة أو استمرت في حالة هدنة مع الاحتلال، وأثبت الاحتلال حسن سلوك نواياه تجاه هؤلاء، فلم يستهدف سوى الأرض وأحلام الإنسان العربي البسيط في الوحدة والحرية، ولأن الاحتلال مطمئن كل الاطمئنان لأهداف الأنظمة ونواياها، لم يخطىء التقدير، ولم يحكم على موقفها من الثورة الفلسطينية في مراحل انطلاقتها

الأولى، حيث استغلت الوقت في التقاط أنفاسها واستيعاب الغضب الشعبي وامتصاصه بعد النكبة.

فظل ديدن النظام العربي البقاء والتواصل، وحتى لا يظهر بمظهره الحقيقي أمام المرحلة كان لا بدّ من اقتناص الفرصة والدخول إلى أجواء المزايدات الرخيصة والتآمر من أوسع الأبواب، وطالما أن العمل الفدائي هو الإنموذج أو "الموضة" في سياق الحياة العربية الجديدة فيما وراء الهزائم والنكسات، لا بدّ له –إذن– من استحضار روحه واستنماء ذاته في ميدان التجربة، فأصبح لكل نظام منظمة.. ولكل حزب مفرزة، وأصبحت الساحة الفلسطينية النضالية صورة مصغرة لجامعة الدول العربية، وبذلك عاد الجدل البيزنطي إلى واقع الحياة النضالية من جديد بعد ما اقتنعت أو تقبلت الجهات المعنية ما أحدثته النقلة النوعية أو التحول الذي حدث بدلالة الكفاح المسلح وحصاده السياسي والتنظيمي السريع والعاجل..

وفي تلك الأثناء كانت حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح قد استوعبت هي الأخرى نوايا الأنظمة، وفهمت مخططاتها، وكانت الحركة قد نجحت في اتخاذ قرارها الحازم، النصر أو الشهادة، حين تيقنت من خلال رصدها لحركة جيش الاحتلال من نوايا الكيان المحتل في احتلال مرتفعات السلط وتدمير قواعد الفدائيين والقضاء على الثورة الفلسطينية المتصاعدة.

واستعدت الحركة لخوض معركة المصير ووضعت خططها وكمائنها المتقدمة التي نجحت في عرقلة تقدم دبابات الاحتلال، فبهر صمود المجموعات الفدائية وتصديهم للدبابات، وتفجيرها بالقنابل، أحرار الجيش الأردني الذي تدخل بسلاح المدفعية والمشاه لتدور معركة ضارية لم تحدث في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي من قبل، ولتسفر عن تراجع قوات الاحتلال وهزيمتها وفضيحة الجيش الذي لا يقهر، حين وجد الجنود مقيدين بأصفاد الحديد متفحمين في دباباتهم.

ومثلما شكلت الكرامة نقطة انطلاقة ومرحلة جديدة في النضال الوطني الفلسطيني، وجد فيها النظام العربي ضالته فأفرغ شحنة من فزعه وقلقه عندما بدأ بضخه الإعلامي التنصل من مسؤولياته القومية شيئاً فشيئاً آخذا جانب العداء الفعلي لكل نشاط جماهيري، وشعبي، داعم ومؤازر للثورة الفلسطينية، ومكتفياً بخطة التأييد الرسمي العلني للنضال الفلسطيني.. لتقيه وتحصنه من نهج التردد والعدم والتخاذل أمام أهم قضايا المصير..

سقطت أحلام الغزاة.. وسقطت نظريات الحدود الآمنة.. وتراجع الوهم الصهيوني إلى ما وراء خطوط القتال الحزيرانية.. وأصبحت الأرض الفلسطينية المحتلة كعبة النضال والجهاد وقبلته.. وتحت ضغوط إقليمية ودولية، وفي أعقاب معركة الكرامة الخالدة بدأ الجدل يدور مع بدايات الحوادث الأمنية

التي شهدتها الساحة الأردنية كحادثة "طاهر ذبلان" حول القاعدة الآمنة للثورة الفلسطينية.

في هذه الأثناء كان الأخ أبو عمار–رحمه الله– ناطقاً رسمياً باسم حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" وكانت الحركة تتهيأ لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية.

كنت أحد أفراد الدورية المعدة لتطبيق مفهوم القاعدة الآمنة داخل الأرض المحتلة، والتي بدأت استعداداتها الفعلية وتدريباتها لعملية العمق ذات الطابع التنظيمي القتالي، وكانت المجموعة قد قطعت مرحلة متقدمة من الاستطلاعات اللازمة للعبور، وسميت نائباً لآمر المجموعة، التي هي مسنودة بمجموعة أخرى لها مهام عسكرية وقتالية محددة إلى جانب مهامها في مساعدة مجموعة العمق لقطع أكبر مسافة ممكنة بما تحمله من معدات وتجهيزات، ولمحاولة صرف نظر قوات الاحتلال عن تتبع خطى وآثار المجموعة الأولى.

وفي لحظات استرخاء وتجلٍ يتخللها السمر والغناء والأحاديث المختلفة بين أشجار البلوط، وعلى أرض الغابة الرطبة جاء مبعوث من آمر القاعدة المنتشرة بمجموعاتها على مساحة سفح الجبل كله ليخبرنا بأن الأخ "أبو سمير" آمر القاعدة يطلبنا للقاء سريع وعاجل..

شربنا ما تبقى في فناجين قهوتنا على عجل، وكنا ثلاثة؛ أبو عبد الله الغزاوي وعبد الله الصغير وأنا الذي اخترت لنفسي أسماً حركياً من بين الأسماء التي عرضها صديق عراقي عليّ كان أحد الزملاء في دورتنا التدريبية الأولى، وكانت مجرد صدفة بحتة، فإن الاسم الذي اخترته من بين الأسماء الكثر هو "شهاب محمد" اسم علامة إسلامي ظهرت كتاباته في القرن السابع الهجري، وهو من سكان ومواليد قريتي الصغيرة، ويدعى شهاب بن أحمد بن محمد الحارسي، وهذا ما علمته من خلال قراءاتي لاحقاً.

وصلنا إلى أعلى قمة في الجبل. وبجانب مغارة كبيرة كانت مجموعة القيادة في القاعدة قد جعلت من المكان لوحة معبرة بلمساتها الفنية.. وكانت القاعدة بمجموعاتها وموقعها الاستراتيجي المكان الآمن الأكثر أمنا لتواجد ومبيت القيادة الفتحاوية في صفها الأول، وقد عرفنا معظم قادة فتح العسكريين، وعلى رأسهم الأخ أبو عمار عن قرب في هذه القاعدة.. والذي كثيراً ما كنا نستوقفه بخرطشه السلاح عند الفجر وهو يهم للوضوء بين أشجار الغابة استعداداً لأداء صلاة الصبح.. وكان في كل مرة يقول عند استيقافه: "الله، دا أنا يا ابني" صباح الخير..

في تلك الأيام كان أبو عمار الفدائي الذي يجعل من همه العام مركز اهتمامه، ومحور وجوده وحياته، وكان شأنه في ذلك شأن كل الفدائيين الذين ترعرعوا في أحضان القيم التي رسختها حركة فتح.. قيمة التضحية والعطاء

والبـذل، وقـيم المحبـة والإيثـار.. لا أحـد يـزاحم أحـداً علـى شـيء سـوى التضحية.. يتسابق الفدائيون ويتنافسون على الشهادة.. سقط العالم السفلي بكل آفاته وأمراضه وتشوهاته بانطلاقة فتح، ورجحت كفة الأرواح المحلقة في وهـج السـماء، حـين لمعـت الفكـرة وانتصـرت الإرادة، وأصـبحت الشـهادة والجهـاد عنـوان الـزمن القـادم، وهـو يحمـل أرواحـه علـى الأكـف، ويسـجل في فرائض عبادته حب الأرض وحب الوطن.. وحب الناس كل الناس، فإذا كان القتال كتاباً مكروها فإن الشهادة هي الحياة والبقاء والخلود..

ونحن في كل الأحوال لا نقاتل من أجل القتال، ولا إسراف لـدينا في قتل أنفسـنا والآخـرين، وإذا فـرض علينـا القتـال فإننـا سـنقول: "وعسـى أن تكرهـوا أمراً وهو خير لكم" صدق الله العظيم.

كانـت السـاعة تشـير الى الحاديـة عشـرة لـيلاً.. وكانـت المجموعـة تعـد العشـاء بحضـور ضـيف جـاء يتفقـد قواعـد الفـدائيين الفلسـطينيين.. ويتعـرف على طبيعة نضـالهم، وكـان الضـيف الزائـر الـذي لا أذكـر اسمـه الآن هـو نائـب رئيس الأركان الكوبي.. وأذكر أن العشاء المعد يتكون من بقايا الخبز المتحجر في القاعدة، وبعض علب السردين والتونة، ورغم ذلك قال ضيفنا الزائر عبارة ترجمهـا المفـوض السياسـي للقاعـدة: "أنـتم ثـورة غنيـة يا رفـاق" وبعـد حـديث مطـول عـن الكفـاح المسـلح وحـرب الشـعب، اسـتقل الضـيف ومرافقـوه سـيارة عسـكرية في زيارة لقاعـدة أخـرى مجـاورة، قلـت في نفسـي: لعـل الأخ آمـر

القاعدة، قد دعانا للتعرف على الضيف الزائر، ولم أكن لأسترسل بعيداً في الفكرة حتى فاجأنا بطلبه، وهو الاستعداد للالتحاق بكادر الأخ أبو عمار، لمهمة المرافقة بالنسبة لي والآخرين.. فرفضت ذلك

، فلمحت تأثره وطلب مني عدم التسرع في اتخاذ القرار، وأمهلني وقتاً كافياً للرد عليه..

ولم يكن موقفي يقبل التردد في ذلك.. غير أنني شعرت برغبته وإصراره على الاستجابة لطلبه.. وفي طريق العودة إلى مقر مجموعتنا في القاعدة حاول الغزاوي وعبيد إقناعي بالموافقة، فحاولت أن أوضح لهم رغبتي في الاشتراك بالمهمة الأخرى، المناطة بي كنائب مجموعة العمق في دوريتنا المنتظرة، وأبلغتهم أنني لا أستطيع التراجع عن هذا الهدف، الذي يشكل أمنية عزيزة علي حاولت أن أحققها قبل انتسابي لفتح، وأنها فرصة إنْ تحققت سترد لكرامتي المجروحة بعض الاعتبار الشخصي، إلى جانب إحساسي العام الذي كان يلازمني طول الوقت وهو أن لا حياة لي خارج المكان الذي ولدت فيه، وأن انتفاء إحساس الغربة لا يتحقق إلا بالعودة.

بقيت طول الليل أفكر.. ووجدت نفسي راغباً أكثر من أي وقت مضى في الكتابة، ولم أهجر الشعر وأهمشه لدي بشكل كلي وقطعي، ولكنني استودعته جانب الادخار في ذاتي ووجداني؛ لأنني وجدت أان الفعل أعلى

مرتبة من كل قول مهما كانت أهميته.. لكنني وأنا الآن في مواقع الفعل المتقدمة أشعر بشيء مغاير تماماً، ولم تكن لي تجربة مع الشعر في غير مواضيعه الشبابية التي هي مجرد إرهاصات لم تأخد سبيلاً في عمق المعاناة والتجربة.. وفي تلك الساعات المتأخرة من الليل كتبت قصيدتي الأولى المتميزة التي لم أعد أذكر منها الآن سوى مطلعها وهو:

شأني كشأن الآخرين رجالاً ما كنت نجماً لا يطال منالاً
شأني أنا أني نبيّ قناعتي من قال إني كافر من قالا
شأني أنا أني سفحت مخاوفي ونسجت أحلامي إليك قتالاً

وكانت القصيدة مكونة من خمسة عشر بيتاً قرأتها في الصباح أمام زملائي في مجموعة القيادة، وأثنى عليها الجميع بمن فيهم آمر القاعدة، الذي بادرني قائلاً: "أفهم من هيك أنك ما غيرت رأيك" فقلت له: "بصراحة أنا أشعر بأسف بالغ، لأنني لا استطيع أن أستجيب لطلبك مع احترامي وتقديري ومحبتي" وأن أسبابي في ذلك لا تخفى عليك ؛فأنا انتظرت هذه الفرصة التي سيكون بمقدوري فيها أن أتصدى لمهمة العودة والاستقرار في الداخل، ونظرت إليه فوجدت الدموع قد احتبست بين جفنيه، ومد يده مصافحاً ومعانقاً وهو يقول: "فتح كبيرة وعظيمة وقوية بنفوس أبنائها "وإرادتهم" والقاعدة، المكان الأكثر ألفة بما يحتويه من معاني المثل والقيم

الجديدة التي رسختها حركة فتح حتى أنها استطاعت أن ترسم صيغة لنوع من العمل الجماعي، بالممارسة اليومية لأن فتح اتخذت لنفسها نهجاً ديمقراطيا يقوم على المشاركة، وتوسيع قاعدة الرأي، والرأي الآخر، فكانت جلسات الحركة وبرنامجها الثقافي مفتوحة تماماً للاجتهاد الذي لا يخطئ داخل الأطر.. وكان النقد والنقد الذاتي ركناً أساسياً في الحوار الموصول.

ذهب الزملاء في القاعدة لأعمالهم وغادر أبو عبد الله وعبيد الصغير المكان، وبقيت أتهيأ وأستعد لذلك اليوم الموعود، الذي لم يتأخر كثيراً، حيث أبلغنا رسمياً بالاستعداد لواجب وطني كبير ومقدس.

وفي تلك الليلة المقمرة ليلة التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني 1968 تحركت المجموعة الفدائية نحو أهدافها المحددة، فعسكرنا في إحدى بيارات البرتقال، وانتظر الفدائيون حتى قبل منتصف الليل بقليل، ثم انطلقوا عبر نهر الأردن، إلى الأرض المحتلة، وكانت الخطة المرسومة للمجموعة الأولى في أهدافها البعيدة الاستقرار التام والنهائي في الأراضي المحتلة، وتنفيذ برنامج تنظيمي وعسكري محدد، والتواصل عبر الإمكانات المتاحة..

وتحددت مهمة المجموعة الثانية بإسناد الأولى، وحمل المتاع والتجهيزات الخاصة بالمجموعة الأولى إلى مسافة محددة في العمق، حتى يظل أفراد المجموعة قادرين على بلوغ الأماكن البعيدة المحددة لهم، وعليها أن تتطلع في طريق

العودة إلى محاولة تضليل جنود الاحتلال الذين يأتون في الصباح مع قصاصي الأثر لتتبع خطوات الفدائيين في الأماكن الممشطة بالأشبال معهم أو مفاجأتهم بعد تتبع أمني وعسكري مفروض قبل الانفضاض عليهم ومباغتتهم، إضافة للمهمات العسكرية الميدانية المحددة من زراعة للألغام أو اشتباك مع الدوريات، وتحديد أهداف أخرى لاحقة، وحتى تكون الطريق المختارة أكثر أمناً وسلامة، وزيادة من المجموعة في اليقظة والاحتراس، اعتمدت اقتراح القيادة المسؤولة بالابتعاد عن الطرق التي اعتادت الدوريات السابقة للفدائيين استخدامها.. والمرور من بين حقول ألغام قديمة بمساحات كبيرة في الأغوار الفلسطينية، وأغلب الظن أن سلطات الاحتلال، قد عملت على تعزيز هذه الحقول لا إزالتها..

تمركزت قوة فدائية للإسناد على الضفة الأخرى لنهر الأردن، وكانت التعليمات لديها واضحة بضرورة مشاغلة كمائن الاحتلال المتقدمة عند الضرورة لتأمين سلامة المجموعة في الدخول أو الانسحاب الاضطراري.. وتحددت ساعة الصفر لعبور نهر الأردن في بعض أماكنه ذات النسبة المنخفضة في مجرى النهر وسرعته، وأحسست بفرح كبير يجعلني أكثر ثقة واطمئناناً من أي وقت مضى..؛ فالمحاولة الآن ليست كمثيلاتها السابقات المحددة، وهي تختلف بأنها مفتوحة على الاحتمالات البعيدة والقريبة، وتختلف حتى عن المحاولة الأولى بأنها ليست مسلحة بالإرادة والاجتهاد الذاتي العفوي

البريء. هذه خطى مدججة بعزيمة القوة والإرادة.. ومسلحة بحق مقدس، وإيمان مطلق وبجانب من عدالة التكافؤ في مواجهات وصراع دائم ومستمر.. يجعل الاحتلال وجنوده غير قادرين على افتراض ما يفترضون من أعمال القوة والغرور والبطش والإرهاب بدون أن يدفعوا فاتورة الحساب والثمن المقابل..

سلام لعينيك يا سيدة العينين المقمرتين
سلام لرائحة البرتقال الشذي..
لزيتونة في أعالي الجبال
وليمونة في السهول
سلام
لزيتونة في أعالي الجبال
وللحلم فوق الروابي
سلام إلى الرمل والبحر والاقحوان..
لنا ألف ذكرى وذكرى..
لنا ألف شكوى وشكوى..
سيفهمنا دهرنا لو قطعنا من الشوق
والشوك أبعادنا والمسافات التي حولنا..
والصدى.. وكل لواعج عشقي إليك وصوتي،
لماذا أتابع خطوي ؟..

لأني أحبك رغم الحدود ورغم القيود..

لماذا أجدد روحي.. لأن دمي أول الغيث وآخر دمع جرى بيننا..

لأني على صفحة من سهيب القوافي أسطر نبضي..

وتحركت رياح الشتاء، واكتظت السماء بالغيوم السوداء.. وأصبحت الأرض أقل احتفاء بضياء النجوم والقمر.. واستبشرنا خيراً بسقوط متقطع لحبات المطر القادم، وقلنا أول الغيث في رحلة الغيث، عسى أن يظل وأن يصبح الغيث غوثا لنا.. المهمة صعبة وشاقة.. كان أول ما يجب أن نقوم به بعد اجتيازنا لنهر الأردن وقطراته على الضفة الغربية، هو اجتيازنا لحقول الألغام الرهيبة والكبيرة فيما وراء خطواتنا السابقة، وأحلامنا المفتوحة على كل الاحتمالات.

كان آمر المجموعة هادئاً متزناً ومنكفئاً بعض الشيء على نفسه، وكان غامضاً معجباً في غموضه ولم تكن بيني وبينه معرفة سابقة، غير أني كنت أتوقع منه أن يكون قائداً لمجموعة فدائية أنيطت بها مهمة سياسية تنظيمية وعسكرية، مما يفترض به أن يكون متميزاً في سمات أخرى تنم عن قدرات إدارية وميدانية وعسكرية خاصة.. ولا أدري مرة أخرى أكان من حسن طالعي أو من سوئه أن وقع علي الاختيار لأكون نائباً له في قيادة المجموعة نحو أهدافها المحددة، أقول ذلك؛ لأني أعتقد أن الإنسان لا يستطيع أن يحكم على تسلسل الأحداث وتطوراتها من خلال تمنياته حتى لو كان صانعاً

للحدث، فكثيراً ما يكون العكس هو النتيجة غير المتوقعة لأن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن أحياناً..

قال نبيل: أرجو أن تؤكد التعليمات لكل الأخوة قبل الدخول في حقل الألغام، وكلها تدور حول المسافة بين الشخص والآخر، وضرورة الانتباه واليقظة، وعدم التسرع والتوقف في المكان دون حركة إذا ما كانت الإضاءة الليلة التنويرية مكثفة، وعدم التدخين بتاتاً، وإطاعة الأوامر بدون نقاش، وعدم إصدار صوت أو حركة تمكن الكمائن من اصطيادنا.. ونحن لا نريد اشتباكاً مع الاحتلال قبل أوانه، وخارج إطار ما هو محدد ومرسوم.

وتوقفت المجموعة بشقيها عند نقطة التجمع، وقلنا للمجموعة المساندة عليكم العمل بتنفيذ ما هو عاجل من المهام الموكلة إليكم الآن، والتعرف علي الطرق الخاصة بمجنزرات الاحتلال، وأكدنا التعليمات والانضباط، وتحركت برفقة آمر المجموعة إلى حقل الألغام لنشق طريقاً لأخوتنا يستطيعون من خلاله تخطي الخطر المحدق بهم، خاصة وأن الألغام المزروعة في معظمها هي ألغام فردية تسبب عاهات دائمة، وإعاقة أبدية إذا لم تنفجر بشكل جماعي، عندما تكون مفخخة وتصيب من الضحايا مواضع القتل الأخرى..

قال نبيل: "أتعلم يا صديقي...؟ قلت له: لا أعلم. قال: لا أعلم شيئاً عن الألغام وحقولها، ولا أعتقد أن لدينا فدائياً واحداً لديه خبرة في موضوع

الألغام من أفراد الدورية، وأننا أمام موقف صعب وخطير.. ولم أصدق ما قاله لي، وأدهشني أن هذه المعضلة الحقيقية التي نواجه الآن يتم التصدي لها في غير وقتها ومكانها الصحيح، فقلت كيف يحدث ذلك، ولماذ زج بنا في أتون هذه المحرقة المرتقبة، ونحن لم نأخذ في الاعتبار عبور المحيط بدون طوق نجاة واحد..؟

ما الذي تقوله يا نبيل..؟

قال: الذي سمعت

وكيف تقبل ذلك؟

قال: لا أدري.. هي الأوامر التي صدرت قبل موعد عبورنا بسويعات قليلة

- أية أوامر يا أخي؟!

- وخيم صمت وسكون رهيبان، وظلت الأسئلة والأفكار تتزاحم في ذهني.

- ما الذي يمكن أن نفعله لتجاوز هذا الخطأ الذي قد تكون لنتائجه عواقب وخيمة؟!

- هل تملك القدرة على تغيير مجرى النهر في لحظات يتسابق فيها الزمن، لأنك لا تستطيع ان تعبره بلا قارب!!!

- وهل تقدر على كشف ستار الليل، وفضح أسراره بعينين مظلمتين.

- نحن أشبه ما نكون بركاب طائرة أصيب قائدها بسكته قلبية مفاجئة، ولا نائب له ولا بديل..

- وبعد شرود وذهول تذكرت أن إدارة الأزمة تتطلب قراراً شجاعاً، وأن دخان سفن طارق بن زياد التي أحرقها على شواطئ المحيط، قد يصلح ليكون مظلة عبورنا المعنوي إلى حافة المرحلة التالية، والزمن الذي بدأ يتآكل أمام ترددنا غير المشروع.

ليس أمامنا إلا الاستمرار، ويجب أ لا نخلي ظهر المخاطرة ونحن فدائيون.. قلتها لزميلي الذي انفرجت أساريره قائلاً: أجل يجب أن نقطع الوقت قبل أن يقطعنا.. وأول ما سنقوم به هو فتح ثغرة في الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمكان، وانتهى نبيل من ذلك بسرعة مدهشة، واستجمعت بعض ما لدي من معلومات عن الألغام الفردية، وكيفية التعامل معها من خلال ما تلقيناه خلال فترات التدريب، وكانت زخات المطر المتقطعة قد أحدثت أثراً طيباً بكشفها لبعض الألغام، ونتيجة لاستخدامنا "السنجة" المعدة في الأصل للقتال الأبيض في رأس البنادق، استطعنا أن نشق طريقاً داخل هذا الحقل،

وأن نعري عدداً كبيراً من الألغام قبل أن نصل إلى السياج من الجهة الأخرى، في المكان المطل على طريق "الجفتلك" وفي أراضي بلدة مرج نعجة الواقعة على مقربة من بلدة طمون..

- يا لها من بداية صعبة وشاقة! قال نبيل وهو يفرك يديه.

- قلت: من يركب الموج لا يخشى البلل..

- ولكن ما زلت أشعر بالقلق الشديد..؛ لأن الزمن الذي سنستغرقه في المرور من عنق الزجاجة كان يكفي لتجاوزنا حدود الخطر كله في مهمتنا لو اتخذنا سبيلاً آخر.

- وما الذي أجبرك على ذلك؟

- قال: يا صديقي، المسألة تتعلق بتعليمات مغايره

- ونحن.. يا سبحان الله! هل يعلم آمر القطاع ما لا نعلمه نحن...؟

- وتمتم نبيل بكلمات لم أفهمها تماماً، ولم ألتقط منها سوى جملة واحدة في نهاية حديثه، وها أمامنا تحديات أخرى قادمة، واتفقنا على إحضار المجموعة الأولى – دورية العمق- أولا، ومساعدة الآخرين في التقدم بعد الانتهاء من مهامهم على الطرقات الترابية المجاورة لحقل الألغام.. وكان لا

بد من عسكرة اثنين من دورية العمق على رأس التلة المجاورة لحراسة القوة، ووقف أي تقدم محتمل للآليات

وفي الوقت الذي بقي فيه قائد المجموعة يقوم بعملية الحراسة، والاستطلاع المتقدم، عدت إلى الوراء لمتابعة أعمال دورية الإسناد، ولإرشاد المجموعة الأولى في الوصول إلى أماكنهم الآمنة المحددة، عند نقطة التجمع خلف حقل الألغام، وقد تطلب مني ذلك قطع الطريق الذي حددنا معالمه من قبل كممر آمن عدة مرات ذهاباً وإياباً.

كانت شارات الموت، وعلب فارغة تتدلى من الأسلاك الشائكة، وهي دلالة على أن المكان "ملغم" وتحذير لعدم الاقتراب منه، وكانت العلب الفارغة تبعث أصواتاً من حركة الهواء بين الحين والآخر، وخلاف ذلك لم يتحرك شيء في المكان.. الذي بدا مدهشاً بسكونه.. كأنه السكون الذي يسبق العاصفة، كما يقولون..

نظرت إلى الأفق البعيد باتجاه نقطة الانطلاق الأولى، واستدرت في المكان كله، كأني أبحث عن شيء مفقود، لا شي يبعث على القلق.. الأمور تسير كما هو مخطط لها، بعد قليل سوف أذهب لاستجماع بقية الدورية، ولم يتبق لدينا سوى أن نقطع المسافة في العمق، برفقة مجموعة الإسناد إلى المدى المتفق عليه، ثم تعود المجموعة لاستكمال مهامها، وعلى هذا النحو كانت

الأفكار تلاحقني في كل خطوة أخطوها وكان عقلي دائم الانشغال، كأنه ماكينة طباعة تصدر النشرات والمعلومات والقرارات أول بأول، وكنت متحركاً بشكل لا إرادي في الاتجاه الصحيح، كأنني معتاد على الطريق الذي عبدته أقدامنا خطاً أخضر داخل الخطوط الحمراء، والسوداء، والنتيجة التي خرجت بها في لحظات الوعي الأولى أن الإنسان قادر على القيام بعملين في آن واحد، وأن الإنسان يتمتع بقدرة خارقة، وذلك ما تيقنته لاحقاً عندما حاولت أن أقدر لنفسي عودة التجربة من بدايتها، فقلت: هل كان بوسعي القيام بما قمت به لو كنت عرفت مخاطر ذلك مسبقاً؟ واقتنعت أن قوة إضافية خفية تستطيع أن تضاعف جهد الإنسان وطاقته في لحظات الخطر، وفي الظروف القاسية التي يتعرض لها.

- مكانك قف! قالها صلاح إلى أحد أفراد المجموعة الثانية، فتوقفت على الفور.

- تراجع للوراء وعدت خطوتين للوراء بالفعل..

- قال بحزم وثقة: من أنت؟

- قلت: أنا فلان يا صديقي.

- فأجاب: كلمة السر

- فقلت: أمة الخير

- فرد ورددت معه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ضحك صلاح كثيراً، وكاد أن يقهقه في ضحكاته، لولا أنني تدخلت وقلت له: على مهلك، نحن في مكان لا يحتمل مزاحك الثقيل، لكن، قل بالله: ما هو الشي الغريب العجيب الذي يضحكك الآن؟

لا شي، لا شي، فقد وجدت من المناسب أن أبدد رتابة الأوضاع، نحن في قلق وانتظار منذ وقت طويل!

عبأت رائحة الهواء النقي المشبع بطيب شذى التراب المقدس جفوني وعيوني وقلبي ورئتي، فتفتحت في داخلي كل أزاهير الفرح والشعور بالرضى، وتجدد النشاط وأصبحت ضلوعي وأطرافي قادرة ليس على المسافات البعيدة فحسب، بل هي مهيأة كذلك لعبور المستحيلات.

إنها ليست أضلعي أو أطرافي كما اعتقدت، فإني أشعر بأن خللاً ما قد أصابني وأصابها.. إنها تتحرك بلا إرادتي وأكثر من ذلك، فهي تقودني ولا أقودها، حيث أريد كأنها "كمبيوتر"، تمّ شحنة بالبرنامج المعلوماتي، فصار يعمل وحده ويتفاعل مع الطريق والأسلاك والأشواك والألغام، وحدة واحدة بلا أدنى توجيه في فترة المتابعة الذهنية المستمرة لأبعاد أخرى.

ضع يدك يا صلاح وألق سلاحك جانبا، وحاول أن تساعدني في التخلص من هذه الجعبة التي أصبحت قطعة من ظهري.. وعلينا أن نستريح قليلاً قبل أن نواصل السير إلى الأمام، هذه المرة وليس إلى الوراء.

جلسنا على حافة صخرة مشرفة على جرف في الوادي المقابل لصفحة التلة التي تشكل المدخل الرئيسي لحقل الألغام، وتناولنا بعض الطعام القليل المتوافر، وكان لا بد لنا من إشعال سيجارة واحدة نتقاسمها بحذر وانتباه، وللسيجارة طعمها المختلف بعد طول انقطاع عن التدخين.

كان صلاح نائب آمر المجموعة الثانية، وكان من صلب اختصاصه أن يعمل على مساعدة المجموعة في تخطي حقل الألغام والخطر المحدق، وكان من واجبي أن أنبهه للإرشادات والتعليمات التي يجب أن تتبعها المجموعة، وقد فعلت وسرت معه من بداية النقطة المحددة لدخول حقل الألغام إلى نقطة الخروج على الجهة الأخرى، وكان يرى بأم عينيه الألغام المنكشفة بفعل زخات المطر والألغام المحددة بفعل (سنجات) البنادق.. وعند تخطينا إلى الثغرة في الجانب الغربي للأسلاك الشائكة، التقى صلاح بنبيل وأعضاء المجموعة المعسكرة، بانتظار عبور بقية الرفاق، وأكد نبيل ضرورة التزام التعليمات كما هي، وبخاصة ما يتعلق منها باجتياز الحقل عبر الخطة المحددة، وتنفيذ الأوامر بحزم وصرامة، وحمل الأمور محمل الجد، وكل هذه التأكيدات بسبب معرفته ومعرفتي بأن المجموعة الثانية تحتوي على بعض العناصر

المستخفة، وفي مثل هذه المواقف لا يجوز الاندفاع والاستخفاف، فالخطر حقيقي ويجب التعامل معه بالوعي المطلوب.

وعاد صلاح إلى مهمته ،وغادر نبيل لتفقد مواقع المجموعة القتالية، وجلست في حفرة صغيرة تجمع أمامها كومة من تراب تحيط بها آثار جنازير الدبابات، والآليات العسكرية وخطى الجنود هنا وهناك ،فبدت كأنها مداس علوج القتال وحوافر خيولهم في المعارك القديمة، ولكن أطلال المكان كلها تتناقض على حالة الهدوء والانسياب والسكون المسيطرة عليه، فقلت في نفسي :هي مناسبة لأخذ قسط من الراحة، بعد الجهد المضني في الرحلات المكوكية ما بين الثغرة والثغرة والخط الموصل بينهما في قلب المخاطرة، وعلينا أن نحسب الحساب ونعد العدة، فلا بد من استمداد الراحة والتزود بالقوة المتجددة لاستئناف المسير في المرحلة التالية.

وبعد ساعة ويزيد من منتصف الليل بدأت طلقات من التنوير تظهر في أجواء المكان.. وبات واضحاً أن كمائن قوات الاحتلال أو المعسكر القابع في الطرف الآخر من الجهة الجنوبية قد استشعروا وجودنا.. وقد يكون الأمر خلاف ذلك كله؛ أي انها طلقات عشوائية اعتاد جنود الاحتلال على إطلاقها لإظهار يقظتهم وحضورهم، خاصة وأن بعض هؤلاء كانوا في كمائنهم المتقدمة يتعمدون إشعال سجائرهم، وإعلاء أصواتهم في الحديث أحيانا، وعلى الرغم من ذلك فالحذر والحيطة لا غنى عنهما، وعلى الجميع

أن يتسمروا في أماكنهم بلا حركة، وهو ما حدث بالفعل إلى أن تلاشت الطلقات وتوقفت تماماً بعد نصف ساعة من التوتر.. عاد نبيل من موقعه على التلة المحاذية، وأبلغني أن كل شي يسير على النحو المطلوب، وأن الفجر الآتي بعد قليل سيحمل أحلامنا، وأننا سنكون وقوداً أو زيتاً محترقاً يغطي بجسارة الدم صفحة او صفعة من النكسة والنكبة معاً، فيصبح للأحرار طريق يعبرونه من بعد، وتبتهج الأوطان باحتواء عظامنا لترابها المقدس.

ومضت اللحظات سريعاً، وخيم الليل بنجومه المتلألئة، وسمائه التي صارت أكثر صفاء، وهمّ آمر المجموعة بالانصراف طالباً البقاء في موقعي حتى يتقدم مَنْ ننتظرهم عبر الممر الآمن، الذي بات مرسوماً على الأرض، وفي جوف أفعى الأرض الهاربة بعد أن خلفت جلدها في المكان لترقد على بيضها المتفجر الذي تتصاعد منه سموم الموت وشهوة القتل.. فكانت خديعة متقنة ومكراً سيئاً.

تلقفته يد القدر لتقذفه في الوجوه على أشلاء اللحم المتهتك، والدماء الغزيرة في الانفجار الأول، والثاني، حيث علت سحابة من الدخان، ودوى صدى الصوت في أرجاء المكان.. ولم تحرك الأفعى ساكناً ولم ينقطع المكان عن سكونه أيضاً.

بقي الفدائيون في مواقع انتشارهم، وبقيت في حالة ذهول ووجوم... ما الذي حدث..؟! بل كيف يحدث ؟!

كل شيء كان يسير على ما يرام.. والموقف مدروس، ومفتوح لكل الاحتمالات، سوى احتمال واحد لم يكن في الحسبان، وهو بلوغ الاستخفاف حداً يعرض مهمة مقدسة، بالاضافة لأرواح المناضلين للخطر.. أيكون قد حدث ذلك بالفعل؟! تساءلت في داخلي بحرارة بالغة، عندما قفزت صورة أحد الفدائيين في مخيلتي وهو يعلق على شيالات حزامه قنبلة في اليسار، وأخرى في اليمين، فهل انفجرت القنابل واحدة بعد الأخرى.. وهل وجه المحتلون في المعسكر المجاور قذائفهم أو مدافعهم للمكان..؟

كل شيء جائز، ولم يكن يخطر على بال أحد أن لغماً أرضياً واحداً كان قد ابتلع قدم زميلنا عقبة وهو يهم لاتخاذ مساره في الممر الآمن.. وأن اللغم الآخر سيفترس ساق زميلنا الآخر صلاح الذي هبّ لنجدته وهو يراه غارقاً في دمائه الغزيرة..

جاء نبيل مسرعاً.. وكانت شارات الغضب والتوتر بادية عليه وسألني: ما الأمر، وما هذه الانفجارات المدوية؟؟

لا أدري، لا أعرف ماذا يحدث بالفعل، أجبته وأنا لا أقلّ عنه غضباً وتوتراً، إن الذي حدث.. لا شك أمر خطير، ونحن لا نملك وسيلة اتصال مع المجموعة الثانية..

وتكاثرت قذائف التنوير التي أضاءت المكان، كأنها قناديل الاحتفال بأعياد الميلاد، أو المناسبات الوطنية، ولا شيء يتحرك على الإطلاق، حتى الهواء هو الآخر توقف عن الحركة، وتسمر الفدائيون وتمترسوا في مواقعهم بانتظار ما هو آت لا محالة.. فقد تيقن الجميع في تلك اللحظات أن هجوماً على وشك الحدوث من الجانب الاحتلالي.. وأن المسألة هي مسألة وقت فقط، وأن الهجوم لا يخلو من عنصر المفاجأة، حتى لو كان الجميع متحفزاً للقتال، والمفاجأة تكون في هذه الحالة جزئية وليست كلية؛ إذ إن عنصر المفاجأة لا غنى عنه في الحروب.

بعد نصف ساعة تقريباً تسلل نبيل من موقعه باتجاه الثغرة، على مقربة من المكان الذي اتخذناه موضعاً قتالياً.. مستغلاً توقف شارات التنوير وبادرني بالسؤال: ماذا حدث بحق السماء؟! قلت له: لا أعلم تماماً!

- وماذا تعتقد؟ سألني مرة ثانية وهو في حالة توتر عالية!

- وبهدوء أجبته: ما حدث قد حدث بالفعل، وأغلب الظن أن الأخوة أخطأوا التقدير؛ فإما أن تكون الانفجارات نتيجة لعدم الانتباه

وتنفيذ التعليمات في السير عبر حقل الألغام، وإما أن يكون ما حدث، نتيجة للاستهتار وانفجار إحدى القنابل التي أدت لانفجار أخرى من القنابل المعلقة على الجوانب، وكنت أشير إلى أحد الزملاء الذي ورد ذكره سابقاً..

- ولكن، ما العمل الآن؟ قالها نبيل وقد أحسست بتأثره البالغ، وقلقه من الاضطرار إلى استخدام الخطة البديلة في حالة تعثر مكنة تنفيذ الخطة الأولى بأهدافها الاستراتيجية.

- لم أجبه على الفور، بل بقيت أُحاول قراءة أفكاره، ومعرفة ما يحاول استجماعه من قرار في داخله..

- وخرج نبيل من الحفرة وخرجت معه، واتجهنا إلى حيث الثغرة الغربية من الأسلاك الشائكة المحيطة بهذا المكان الذي أصبح رهيباً ومخيفاً، وسألته وهو ينظر إلى الشرق عبر حقل الألغام باتجاه المكان الذي وقعت فيه الانفجارات.

- بماذا تفكر يا أخي.. ؟

- أجاب: ليس أمامنا إلا إعادة تنظيم صفوفنا، ومعرفة ما حدث تماماً، وفي ضوء ذلك يمكن اتخاذ القرار المناسب.

- إذن على بركة الله، سأعود عبر هذا الممر مرة أخرى، وسأرى ما حدث بالفعل، وما عليك الا البقاء والانتظار هنا..

- لا بل نعود معاً، قالها بإصرار وحزم. فرفضت ذلك وأخبرته بأن بقاءه مهم هنا في حالة الاشتباك، وقد يحدث في أية لحظة.

اقتنع نبيل بالفكرة، وطلب إلي التركيز والانتباه ومعالجة الأمر وفق رؤيتي لذلك.

وبقي نبيل في موقعه أمام الثغرة، وفي المكان نفسه الذي اتخذته لي موضعاً للمواجهة، وحملت امتعتي وبدأت مسيرة صعبة هي -بدون شك - أصعب من المرة الأولى التي اقتحمت فيها هذا المكان الموحش المخيف، ورسمت فيه شارات المرور لزملائي، ممر العبور الآمن، ليس إلى الهدف فحسب، ولكن إلى زلزال التوتر، على قارب النجاة الوحيد الممكن، أمام حجم الطوفان، وبطش العدوان، ألا وهو إرادتنا التي حاول الأعداء استلابها بعد استلاب أوطاننا وذكرياتنا وتراثنا وحضارتنا، فأصعب شيء في الحياة أن تجد نفسك بين ليلة وضحاها مسلوخاً عن كل هذه الركائز والمقومات التي تشكل بنيانك النفسي، وحالتك الإنسانية، وتوقفت برهة بعد خطوات قليلة، ونظرت في أبعاد المكان ملياً، وقلت في ذاتي: "أيها المكان الموحش، لن تكون أكثر وحشة من الغربة والاستلاب، لن تكون أكثر وحشة من

التشرد والضياع والتيه، ولأنت أرحم في وحشتك من شراسة الأعداء، ومن سريرة أعماق الاعدقاءالتي أوغلت في الوحشة، والتوحش حتى أصبحت مسكونة بالأوهام ومشحونة بنفس العدوان وألاعيبه ومؤامراته.

أيها المكان الصعب الرهيب، الإرادة فعل، وحركة، وسلوك، والموقف هو العنوان، فإما أن نأتيك بأبنائنا، فنخرجك من الظلمة والوحشة، وإما أن نبتلع وحشتك بدمائنا وأشلائنا وأرواحنا، وهي عصية على الموت والفناء؛ لأنها تهب الحياة لأبنائنا وأجيالنا وأشجارنا وأنهارنا وأسرارنا.. وشعرت بأنني أسير فوق الماء، وأخطو خطو غزال يعلم موقع قدميه في وثباته وشروده على الأرض، والماء، يشدك إلى أعماقه، والأرض تمنحك قوة الوثبة والصعود.. وعليك أن تعبر المسافة، ومع ذلك كله كنْ حذراً ما استطعت، ليس لأنك خائف أو متوتر، لا سمح الله، بل لأنك يجب أن تستكمل الطريق، وتنبئ البعيد وتنبيء القادم الجديد، من هو الدائم الوحيد، وأن أول الزمان ينتظر، وآخر الزمان ينتصر..

صعدت إلى روحي مرة ثانية، وترجلت من على أرجل حصاني التي اتخذتها في غزواتي سباقاً في أبعاد الحلم المتواصل..

أنت مسافر..

إذن لا تحلم..

واخلع قناع الخطر، وضع قدميك على حافة المقصلة لأنك يجب أن تدوس الأسلاك الشائكة بهما، ويجب أن تفجر الألغام القاتلة بهما.. ويجب أن تكسر بيض الأفاعي بهما..

هي المهمة الآن، ولا تذهب في الأحلام والذي ينقلك لعالمك البعيد هو الانتهاء من عالمك القريب.

- ولكن، من أنت..؟ شيء غريب عجيب، أتحدثني طول هذا الوقت؟

- وحين أنظر إليك تختفي

- يا هذا، أنت لست صوتاً أو هاتفاً داخلياً فقط..

- انتظر، لا تذهب.

- أقول لك لا تذهب أنا.. وأنت

- شيء غريب عجيب، لقد اختفى..

- ماذا يحدث لي؟! فركت عينيّ بأصابعي، وأمعنت النظر في كل اتجاه، ولكني لم أشاهد أحداً.

- كيف وقد كان معي يحدثني، ويحاول أن يتشبث بي، ويضع يده على كتفي، وهو يحاول تجنب الألغام.

- لقد سرنا معاً كل المسافة، ولم يبق إلا القليل، فلماذا يغادرني ويختفي قبل الوصول؟.

لا عليك – قلت في نفسي- فليذهب حيث يشاء..

- المهم أننا وصلنا.

- ولكن، هل وصلنا بالفعل.. وكيف يذهب؟!

- وهل جاء ليذهب فقط؟!

- لقد أذهلني في حضوره وذهابه!!

وبين الحين والحين، وعندما تجد من يشاركك اللحظة، والفكرة، والرأي، خاصة إذا تحررت من قيود المكان والزمان.. وخرجت من أصفاد الوهم والأوهام.. وأصبحت لك خطى تتواصل على حافة العالم الأثيري، ستجد مكاناً لرأسك المتعبة والمشتعلة بالأوهام... وستكون كأولئك الأطباء الذين يقدرون على استنساخ أرواحهم وحكاياتهم ليتقدموا بعلم الجينات، وصناعة الكائنات المنسوخة من صلب التكوين الأول، ولأنك لست طبيباً ولا عالماً

متخصصاً في علم الوراثة، فإنك- أغلب الظن- ستقودك الخطى لاستحضار الأرواح التي يجندها اللاوعي، لتركب ظهر جنونك إذا ماتبدلت الأوقات والأزمنة، وأصبحت المسافة بين عقلك الظاهر والباطن مسافة للتحدي وإثبات الوجود.

من تراه يكون ذاك الكائن الأبيض الناصع بياضاً، بعباءته وجبته، وعمامته وحتى حذائه الأبيض...؟

من تراه يكون وهو لا يحدث ضجيجاً ولا حركة، ولا يقلد أحداً في خطاه...؟

كأن الأرض تسير على قدميه..

ولا تنفصل قدماه في التوقف والمسير..

وأعجب من ذلك كله رأيته حين انفلصت قدماه عن الأرض، وعلا بقامته الرشيقة إلى أعلى.. وكانت قدماه تتقلصان شيئاً فشيئاً.. وبدأت من جانبيه الأماميين تبرز أجنحة لم أشاهد مثلها من قبل، وحين أصبح في ارتقائه بعيداً بدى وكأنه حمامة بيضاء تطير في أعالي السماء..

عد ثانية أيها الشيخ.. واحمل صعودك إلينا ربما تولد المعجزة.

يا أبي لم أسريت بي حيث أنت، وبت قريباً بعيداً، وحملتني على ضفافك البيضاء، وجعلتني أتشكل على نبض ذراعيك، فألفيتني أحصد الظل ظلاً، وكنت مع البرق لو لاح، وأرقب دورة الفأس والرأس، أزرع في الأرض ورداً وفلاً...

ومضى واثقاً، وبقيت كلماته خالدة في الذات، تملأ الوجدان والآذان، ولا الموت سوى الموت الذي نشتريه، ولا الحياة لنا بأي ثمن.

وقضيت يا أبي إذ قضيت وقد تحقق لك ما شئت وما تمنيت.. لم تطلب الكثير.. ولم تطمع كما طمع الأخرون، وكل ما شئته، ودعوت من أجله، ألا تكون الغربة قدر الحياة والموت معاً.. طلبت النهاية حيث كانت البداية.. واستجاب الله لك ولدعائك.. وتذكرت ذلك كله، قبل أن تموت، وقبل ان تصعد روحك إلى بارئها، لكن، لماذا تمثلت لي في تلك اللحظة العابرة..؟ أتكون شاهداً بدعائك القديم.. أو تكون حاضراً وأنت لم تغب لحظة واحدة، وإن كنت لا تعرف عني شيئاً؟! ولا تعلم أين أكون منذ تلك الليلة التي قررت فيها، أ لا يعلم بي أحد، وأ لا يعرف ما بي أحد قط، وقد بقيت تساؤلاتك المشروعة وبحثك المتواصل لمعرفة أخباري، ترتد بلاصدى لأنني كنت قد قررت ألا أقحمك وأمي وأهلي في سر ما اخترته لنفسي من مشقة الاختيار..

لماذا سموت في صعودك يا أبي؟!

لأنك المعلم الأول الذي زرع في نفسي معاني الكبرياء..

لماذا أطلت في حضورك على قصر الوقت الذي قضيناه معاً وهو بضع خطوات، مركبة، على بضع ثوان، أتت حلم رائع وعظيم..

لأنك تستحضرني في روحك التي تتجلى أمامي كتاباً مقروءاً..

نعم يا أبي..

أنا من علمته الشجاعة سيفاً وقلماً ولغة لم تنضب..

وأنا من صنعته الشجاعة والكبرياء في زمنك وزمن آبائك وأجدادك الذي يتواصل فينا، لذلك أنت لم تمت قبل أوانك وإن رحلت مبكراً..

وأنت لم ترحل عنا إذ بقيت حياً..

فالأموات هم الذين لا ينهضون من قبورهم أبداً

وأنت تنهض إلى سمائك كل صباح..

وطويت المسافة الطويلة ما بين الثغرة والثغرة.. وجعلت فلسفة الموقف كله، تتجلى في عبارة واحدة.. الحياة والموت.. مستويان ويستويان عند الضرورة.. سأفقأ عين الأفعى وأحطم البيض كله، وليكن ما يكون.

كان كاظم يتكىء على الصخرة المطلة على الجرف أمام الثغرة، وكانت يده اليمنى مشدودة بقطعة من (حطته) السوداء، وكذلك رجله اليمنى مربوطة هي الأخرى بعد أن مزقت الشظايا لحم فخذه، فبدت نازفة متهتكة،وكان في وضع صعب ورهيب، ليس بسبب إصابته التي شلت قدرته على الحركة، ولكن بسبب المشهد الذي أمامه على صفحة التلة المجاورة، وفي زقة متجمعة من ترسبات الوادي، حيث وقع الانفجار الأول، والثاني على التوالي، وأديا إلى إصابة اثنين آخرين من أفراد مجموعة الإسناد، عندما ، حاول أن يسير على هدي من سلوكه ورايه، وعندما هب الثاني لنجدة زميله الذي رآه غارقاً في بحر من الدماء، وقد أدت الإصابة إلى بتر ساقة اليسرى على الفور، وأصبح غير قادر على الوقوف والحركة.

سقط عقبة، وسقط صلاح بعد انفجارين كبيرين مدويين، ، وظلا يئنان في جراحهما الخطيرة طوال الوقت، وينزفان، وليس بمقدور كاظم أن يفعل لهما شيئاً سوى الانتظار، وتنبها إلى ضرورة ربط أرجلهما من فوق الإصابة لوقف النزف أو الحد منه قدر المستطاع.. أما البقية من أفراد المجموعة فكانوا

في مواقع انتشارهم، تحسباً لهجوم واشتباك لم يحدث بعد فترة كافية من الترقب والانتظار..

قلت لكاظم: هل تستطيع إشعار اثنين من الأخوة بضرورة إخلاء الجرحى إلى النهر، أو حتى إلى مواقع خلفية أكثر أمناً، فأجاب بالتأكيد سأفعل ذلك.. وهمّ كاظم محاولاً الوقوف على قدميه المرتعشتين النازفتين، ولكنه لم يتمكن من ذلك فسقط في مكانه.. وبينما كان يحاول النهوض مرة أخرى، أسرعت نحوه لمساعدته، وتيقنت أن إصاباته ليست بليغة، وأن عظامه سليمة، وظل في سيره متكئاً على كتفي إلى أن وصلنا المكان الذي اتخذته المجموعة مركز التجمع ونقطة التحرك، حيث هي تحت حراسة اثنين آخرين تولى أحدهما مهمة مساعدة كاظم في الوصول إلى موقع آخر من المواقع الخلفية على أن يعود للمساعدة في إخلاء الجريحين الآخرين.. وعدت أنا وجلال إلى المكان الذي يرقد فيه الجريحان وسرعان ما انضم الينا سائد، وتقدم ثلاثتنا بحذر بالغ نحوهما، وتمكنا من إخراجهما من الزقة التي تغطيها برك الدماء، وأشلاء اللحم المتناثرة، ورائحته المشبعة برائحة الانفجار، كانت معنوياتهما عالية رغم حجم الضرر والإصابة، وبعض الناس يعتقدون بأن فقدان الساق أهون على المرء من فقدان إحدى يديه، ولكني،- من خلال التجربة الصعبة- أقول: إن فقدان اليدين مجتمعتين يكاد أن يكون أهون من فقدان ساق واحدة، فعلى الأقل الذي يفقد يداً يستطيع الحراك والحركة أكثر

من الذي يفقد ساقاً.. ولقد أثبتت الأيام أن الذي يفقد ساقاً يظل في معاناة مستمرة مع آثار الجهاز أو الساق الاصطناعية وجروحها والتهاباتها الجلدية المتكررة بسبب الاحتكاك وخلافه، بينما الذي يفقد يداً فان معاناته تكاد تنحصر في فقدان وظيفتها فقط.

أسوق هذا الكلام وأقوله ليس من أجل المفاضلة بين أمرين أحلاهما مر.. ولكن كم يعز عليّ أ لا يعرف هذا الأمر إلا صاحبه، وهل يعرف الحبّ إلا من يكابده..؟

كان عليّ أن أقدر الأمور حق قدرها.. ولقد عودتنا فتح بأن الكادر قائد في مكانه وموقعه، وعليه أن يتخذ القرارات، فمركزية فتح وحزمها في تنفيذ الأوامر والتعليمات لا تلغي الجانب اللامركزي في إدارة القتال، واتخاذ القرار في وقته، وزمانه المناسبين، وما حدث في تلك الليلة كان يستوجب أحد الاحتمالين: الانسحاب الجزئي الذي يضمن إعادة ترتيب الصفوف وإخلاء الجرحى المعرضين للوقوع في الأسر، أو الانسحاب الكلي وعودة تنظيم الكرة مرة أخرى، ولقد وجدت من المناسب أن يحدث الانسحاب الجزئي، وأن تسير الأمور وفق ما هو مخطط لها باستثناء التعديل الطارئ الذي أصاب الخطة كلها.

سار جلال وسائد إلى المواقع الخلفية يحملان على ظهريهما رفيقيهما الجريحين عقبة وصلاح.

وزادني هدوء المكان وسكونه اطمئناناً، حيث لم تظهر أية بادرة للاحتلال أو نية له في المواجهة، لأنني لم أكن مقتنعاً بأن المنطقة خالية من كمائنه المتقدمة، وأن أصوات الانفجارات لم تصل لآذان الجنود حتى لو بفعل الصدى وترددداته العالية.

وعدت إلى الثغرة والممر من جديد، وظلت صورة ما حدث ماثلة بكل تفاصيلها الدقيقة؛ الدماء والعظام، والأشلاء واللحم المتناثر، والرائحة الكريهة، وتساءلت في نفسي: ما الذي جناه ذلك الذي اخترع هذه الألغام اللعينة، لكي تفرم اللحم والعظم، وتخلف وراءها مأساة الإعاقة الأبدية والمعاناة المستمرة؟

يا الله، ما أرحم الرصاص الذي يخترق الرأس والقلب، ويأتي على الحياة كلها بدلاً من أن تتشوه الحياة، ويظل طعمها مراً إلى الأبد!

يا الله، ما أرحم الموت أمام بؤس المعاناة، ومكابدة اليأس، وتجرع الحسرة سماً قاتلاً طويل الأمد!

لو كان لي حق الاختيار لاخترت الموت برصاص الاحتلال، وما تقبلت أن تحدث كيماؤه اللعينة مثل هذا التشوه الذي أصابهم.

ولو قدر لي غير ذلك لجعلت الفرصة متاحة لشيء من حق اكتساب شرف المنازلة، ومعركة الأخطار المحدقة؛ لأن اغتيال الأعضاء البشرية بهذه الطريقة البشعة، هو شكل من أشكال الإرهاب الذي لا يقل خطورة عن اغتيال الكائن الحيّ، وحرمانه من حق العيش والحياة

إذن، فمن هو المخرب الحقيقي؟ الذي يسعى لعودته إلى بلده وداره التي اقتلع منها.. أم الذي يطلق الرصاص ويزرع الألغام ليحصد أرواح الناس ويقطع أيديهم وأرجلهم؟ .. فالجماجم والعظام وأباريق الشاي والأطلال التي لقيناها على صفحة ذلك الوادي، في المحاولة الأولى للعبور، وما حدث من جرائم بحق الحياة، في هذه المحاولة، وكل ذلك ما كان له أن يحدث أو يتم، لو لم يكن الاحتلال يفهم ما يريد، ويعمل على تحقيقه بوسائله وأساليبه المعهودة، والمسألة لا تتعلق بوسائط اغتيال الأرواح والأعضاء البشرية "الألغام" فقط ، فإن غيرها من الأسلحة الأخرى، يمكن أن تلعب الدور نفسه، وتحقق النتيجة ذاتها، ولكن انتفاء عنصر المباغتة، والغدر إلى حد ما، يترك هامشاً من الاعتماد على القدرة الذاتية، التي تعطي فرصة المناورة المشروعة، وإلا فالحرب كلها هي السبب الحقيقي، الذي يتناقض مع حق

العيش والحياة، وكل ما يصيب البشرية من ويلات وكوارث تعبر عن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان..

كان نبيل قد استشعر بضيق الوقت المتبقي لاستكمال المهمة قبل طلوع الشمس؛ فقادته خطاه لعبور الممر مرة أخرى بعد أن أقلقه الانتظار، ولم تكن صدفة أو مفاجأة حضوره ولقاؤنا ثانية في الممر عند نقطة ليست بعيدة عن مكان الانفجارين، فقلت له قبل أن يسأل إن المجموعة الثانية قد أصبحت بكل عناصرها في الخطوط الخلفية بعد اضطرارنا لإخلاء ثلاث إصابات حدثت بسبب انفجار الألغام، وإن مهمتها الأساسية هي اتخاذ وضع قتالي لحماية المجموعة الأولى، إن هي قررت الانسحاب قبل طلوع الفجر، وإن الوقت الذي حدد لها هو الساعة الرابعة فجراً لتتراجع وراء النهر إذا ما استمرت مجموعتنا في السير نحو هدفها المحدد.

وماذا عن التجهيزات الخاصة بمجموعة العمق التي هي بحوزة مجموعة الإسناد؟ سأل نبيل.

فأجبته: إن التجهيزات كافة كانت بحوزة المجموعة الأولى قبل عبور حقل الألغام تحسباً لاحتمالات الموقف بمعطياته،

وهل بلإمكاننا الاستمرار بالمهمة دون معونة المجموعة الثانية؟ قال نبيل.

نعم، أجبته قائلا: إن الأسباب كلها قد تهيأت لذلك؛ فالتعليمات الصادرة للمجموعة الثانية بالتراجع قليلاً لا تعني التنصل التام من مهامها المحددة على أطراف النهر، وهي في مستعده لحماية انسحاب المجموعة الأولى إن حدث ذلك قبل الساعة الرابعة فجراً، وإن الخطة البديلة إن استمرت المجموعة الأولى في تقدمها نحو الهدف، تنفيذ التعليمات القاضية بمشاغلة دوريات الاحتلال الصباحية، وصرفهاعن اقتفاء آثار المجموعة الاولى..

قال نبيل: حسناً فعلتم..

إذن علينا الإسراع فالوقت المتبقي لدينا قصير، ولا بد من استثماره تماماً..

وما هي الا دقائق معدودة فقط تجاوز عليها بدء شارات التنوير من جديد، التي استؤنفت في اللحظة الصعبة التي شعرت فيها أن شيئاً ما قد كسر تحت قدمي اليسرى، وأنني بقيت ضاغطاً للحظات سريعة، قبل أن أحاول نقل قدمي بالقفز إلى الجانب الأيمن، لكن الانفجار، كان سريعاً وقوياً، وصاحبته انفجارات أخرى أغلب الظن أنها ألغام مشركة..

شعرت بفراغ هوائي، وبأنني علوت في الهواء، وارتطمت بالأرض على حافة الجرف الترابي مقابل الثغرة، وكانت الأرض تدور بي كأنني مصلوب على دولاب طاحونة من طواحين الهواء، وبقيت على هذه الحال مشلول الحركة،

وغير قادر على استيعاب ما حدث، أضع رأسي بين يدي فيأخذهما في دورانه الرهيب، وأضع يديّ على الأرض فينتابني شعور بأني على حافة الطابق العلوي من عمارة تتكون من عشرين دوراً ويزيد، وآيل للسقوط لا محالة، ومنذ تلك اللحظة الرهيبة وجدت نفسي لاحقاً لا أقوى على الاقتراب من حافة الدور الثالث أو الرابع لأي بناء على أقل تقدير، حتى لو كان محاطا بسور أو (طفطاف) منيع، ومنذ ذلك الوقت أصبح السقوط بالنسبة لي قاتلاً في أي شيء، وأي مستوى.. أحب الصعود والنزول وهما سنة الحياة، ولكنني أكره السقوط ولا أتمناه لأحد، ومرة قرأت عنوان ديوان شعري أو مجموعة قصصية لا أذكر، وكأن عنوانها السقوط إلى أعلى، فضحكت كثيراً وشعرت بارتياح بالغ لأن هذا السقوط ليس هو السقوط الذي صنعته الكارثة في ذهني...

أحب الحياة والناس، ولا أكره أحداً، وحتى الذين سلبوا أوطاننا وكانوا سبباً في معاناتنا ووضعوا لنا بيض أفاعيهم الفاسد لينفجر في وجوهنا، واستخلصوا من أعماق الأرض مشتقات تكنولوجيا الحرب لإبادتنا .. حتى هؤلاء لا أشعر نحوهم بالكره، ولكنني أكره سلوكهم وتصرفاتهم اللانسانية، وأدين برنامجهم العدواني.. وعندما يتحررون من ذلك يصبحون مثلهم في ذلك مثل بني البشر، وإن شعور الحرمان والغبن والاستلاب إحساس بالغ الخطورة فلا يتقبله الإنسان من أقرب الناس إليه فكيف يتقبله من الآخرين؟

هل نحن بحاجة لهذا القول!!

نعم وزيادة في تأكيده ينهي كل تردد ويحسم كل جدل بحق الإنسان المشروع في إنسانيته وكرامته، دون أن يتقاطع ذلك مع حقوق الآخرين، وكرامتهم.

أوشكت على الخروج نحو عالمك الخاص..

تأبطي ذراعي نحن الآن نسير خطى مشتركة على الطريق الترابي المحيط بمنزلنا القديم..

سمعتك تهمسين بين الخطوة والخطوة عن لغة تجمعنا ومعان لا يفهمها غيرنا.. وتسألين: هل أنت واثق أم تراك تسند صدرك إلى أذني؟..

لا أسمع شيئاً مختلفاً فدقات القلوب واحدة..

وإشارات صامتة أن لسانك لا يقوى على البوح حتى بتجليات راحتيك اللتين تحتضنان وجهي..

صحيح أن العرق يتصبب من جبينك..

ولكن لست وحدك الذي يشعر بالخجل..

وقلت لي في ذلك المساء: أي نجم هوى من أعالي السماء، وأية بشرى حملتني اليك..؟

كنت أحلم فقط بنظراتك وهي تجمع شتات أفكاري، وتوحد ذاتي؛ فأنصت إلى لغة صامتة وحوار مقروء.

أحبك ما استطاع الحب إليك سبيلا..

وأستطيع أن أقول لك الآن ما عجزت عن قوله من قبل:

إن النساء الجميلات لا يجتهدن في استحضار أرواح المحبين إلى خدر أحلامهن.. وإن الأحلام الجميلة-في الأصل- محرمة على الإحساس المسكون بمشاعر الظلم..

وكبرياء المرأة وعالمها النرجسي، لا يدرك مساحة الظنون التي تتبع روحي.. وأوزان اللغات التي تشيع جسدي..

فكان لقاء، وكان فراق، وبقيت الصورة على نحو ما رسمتها يد القدر..

لا صوت لي يخترق حواجز الصوت، ولا إرادة إلا إرادة تستحوذ عليها بوصلة القلب الذي حدد اتجاهه المغاير سلفاً..

كانت الشظايا تتطاير في كل اتجاه، والرصاص ينهمر بغزارة، والقنابل الضوئية جعلت الليل نهاراً، وسمعت صوت جنازير الدبابات يتصاعد شيئاً فشيئاً، وأحسست بحرارة بالغة في ساقي اليمنى فتفقدتها، لأجد نفسي مصاباً للمرة الثانية، بفعل شظية اقتطعت مساحة واسعة من ساقي اليمنى، ولعلها هي المنبه الذي أيقظني من إغماءة الإصابة الأولى، فقددت (الحطة) على الفور، وربطت ساقي اليمنى المصابة، وساقي اليسرى التي تحولت بفعل الانفجار المروع إلى كتلة متهشمة من اللحم والعظم والدماء الغزيرة، وقررت في تلك اللحظة ألا أقع أسيراً حتى لو كلفني ذلك حياتي، وزحفت إلى الثغرة البوابة على جانبي الأيمن، وبقيت أزحف وأزحف بسرعة فائقة حتى قطعت مسافة كافية على الطريق الذي اعتاده الفدائيون في عودتهم نحو النهر، ثم استجمعت ما تبقى لدي من قوة، وألقيت بجثتي في حفرة كبيرة أغلب الظن، أنها مربض إحدى دبابات الاحتلال في تلك المنطقة..

كانت ساقي اليسرى مصدر الألم والنزف الشديد الذي لم يتوقف، ولم أشعر بآلام الساق الثانية، وكأن الألم الكبير يبتلع في طريقه الألم الصغير.. وأصغيت منصتاً في كل اتجاه، وحاولت تقدير الموقف على حقيقته.. فكان أزيز الرصاص المتقطع وحده هو الذي يقطع حالة السكون الحذرة، بين الحين والآخر، فخشيت من تقدم قوات الاحتلال في عمليات التمشيط المعتادة في مثل هذه المواجهات، فتناولت القنبلة الأخيرة المتبقية لدي، بعد أن فقدت

سلاحي، ونزعت حلقة الأمان ووضعتها في يدي، وقلت في نفسي:إذالم يحضر جنود الاحتلال وقدت الوعي قبل حضورهم فستنفجر بي، وطلبت من الله العفو والمغفرة.

لم يكن أحد ليتصور حجم الآلام الشديدة التي تعرضت لها، خاصة أثناء المسافة الطويلة التي زحفتها، وكانت ساقي وخاصة العظم المتكسر المحاط بكتلة اللحم المحروقة والمتهتكة، تضرب الحجارة، ترتطم بالأرض والتراب تارة، وببقايا النباتات المتيبسة على الأرض تارة أخرى.. ولم يكن أحد ليتصور حجم الآلام التي تنتظرني لو وقعت في أسر قوات الاحتلال.. فعلى الأرض كما حدث لزملائي من قبل يبدأ الاستجواب الأولي، وتفعل السكاكين فعلها في تعميق الجراح، وخضها وإتلافها بيد جنود الاحتلال.

وتركت الأفكار السوداء التي كانت تنتابني تحت وقع الألم والمعاناة، وقلت: علي أن أبقي نفسي في حالة الوعي؛ لأن الوعي أصبح بالنسبة لي الحياة ما استطعت إليها سبيلا.. واللاوعي هو الموت المحقق.. لا شك في ذلك.

سيدتي الحياة الرائعة.. العظيمة.. الموقرة.. أنا لا أكره الموت، ولا أحبه أيضاً.. فبعض الموت بالنسبة لي حياة، وبعضه الآخر فناء.. وإني إذا ما حرصت عليك فإنني لست من الأموات الأموات..

ولكنك شر أو خير لا بد منه، فإذا قدر لي أن أموت بلا انتحار، فإنني سأحيا ما حييت، ولكني لن أتوسل البقاء.. وكل ما أتوقعه، وأبحث عنه أن أخرج بيدين نظيفتين من لا شرعية القتل؛ فهل تقتلني يداي؟؟

ويداي هما العضوان الوحيدان المتحركان ببقايا إرادتي في جسد أصبح كله منهكاً متعباً حتى الموت.

نظرت إلى القنبلة في يدي، وفتحت كفي اليسرى المخضبة بالدماء، وكانت عيناي تزوغان من شدة النزف، سمعت هاتفاً يقول لي: يا بني.. الحياة نعم، ولكن ليست بأي ثمن.

- هل عدت يا أبي؟
- أنا هنا كما تراني لا أخشى الموت، ولا أخاف شيئاً
- ولكن، أليس من حقي أن أطلب نهاية عادية؟..
- لماذا يكتب علي أن أضع الحد لموتي وبقائي؟.

فما هذه المعادلة الصعبة؟!

وما هذا الإشكال الذي ما انتظرته قط؟..

أيها الموت، أقبل فأنا بانتظارك حتى الرمق الأخير،

أيتها الحياة، امنحيني الصحوة والفكرة حتى يدخل الموت خندقي .. ولا أقول فراشي الوثير..

ويا زماناً إليك أشكو زماني وعلى صهوة المكان رهاني
كم أناديك لو سمعت ندائي ضاع صحبي.. وتاه مني لساني
لم أعد قادراً على الكلام..

زاغ نظري أكثر فأكثر، وبت لا أرى أبعد من مسافة أمتار معدودات.. وغرقت في بحر من الدماء التي تجمعت في الحفرة..

وعجبت لهول المفاجأة! أيحضرني الشعر في هذه اللحظات العصيبة..؟!

فقلت: كيف لا.. وفيم العجب ؟!

ألم يسجل الشاعر اليماني قصيدة طويلة وهو مشرف على الموت بعد لدغة الأفعى، وهو عائد من المعركة؟ وكانت المفاجأة الثانية التي تحمل البشارة؛ إذ سمعت هسيس أقدام على بعد أمتار لم أستطع تحديدها تماماً، وبقيت أنظر في اتجاه مصدر الصوت حتى شاهدت زواله، فغمرني فرح عارم وكبير؛ لأن اللغز الذي كان يحيرني قد انتهى، فإن كانوا جنود الاحتلال فإن

الموت قد جاء على قدميه، وإن الشهادة حق ورؤيا، وإن كانوا من أفراد مجموعتنا المقاتلة فإنها البشرى، وأية بشرى؟!

وصحت بأعلى صوتي: قف.. قف مكانك..!

- فتوقف الشبح بدون حركة.. ثم صحت به ثانية: من تكون؟
- فقال: نبيل..
- قلت: تقدم.. فتقدم خطوات أخرى إلى الأمام
- ثم صحت به ثانية: كلمة السر
- فقال: أمة الخير والفداء

فرددت وردد معي أمة الخير.. أمة الفداء، أقبل نبيل مسرعاً نحوي، وانقلب فرحة إلى حزن شديد حين وجدني غارقاً في دمائي، فتناول أمان القنبلة من إصبع يدي اليسرى، وثبته في مكانه قبل أن يأخذ القنبلة من يدي اليمنى.. وقال: لا عليك؛ سيحضر الغضبان وآخرون، وما هي الا لحظات حتى حضر باقي أفراد المجموعة بالفعل.. وكان نبيل قد أصيب جراء الشظايا في ساقه اليمنى وأماكن متفرقة من جسده.. حملني الغضبان، وهو شاب متطوع للقتال من أبناء الجالية الفلسطينية في الكويت، وكثيراً ما كان يشرح

لنا بأسلوبه المرح، مشاق عناء السفر للكويت، عبر الصحراء وظروف الحياة والعمل هناك، متندراً على الأيام الصعبة التي قضايا في معمل الطابون الرملي. وساعده زميلنا رياض الذي ترك نعيم الحياة وراءه في الكويت أيضاً، وجاء ليشارك في صناعة الحدث العظيم؛ حملاني مسافة طويلة، وقطعنا النهر لنجد مجموعة الإسناد وكمائن متقدمة في الجيش الأردني في انتظارنا، وكان الجريحان الآخران عقبة وصلاح في انتظار السيارة التي اقلتنا الثلاثة إلى المستشفى في مدينة السلط، في حين أجريت الإسعافات السريعة لأصحاب الإصابات الخفيفة، ولحقوا بنا لاستكمال علاجهم.

كانت الأنباء قد سبقتنا إلى المستشفى، الذي وضع في حالة استنفار كاملة، وكانت الأعداد من أبناء الحركة، وقادتها قد تجمعوا في مدخل المستشفى، وإذا كنت قد تجمعت في بقية باقية من القدرة على استيعاب وفهم ما يدور حولي، فإن صوت المرحوم "أبو صالح" الذي كان مسؤولا للمليشيا في الساحة الأردنية قبل أن يصبح عضواً في اللجنة المركزية لحركة فتح، قد رافق صورته، وهو يمسك بيدي وأنا أطلب الماء فيردد النداء والرجاء، لإحضار الماء الذي لم يصل حتى بت فاقداً الوعي، لا أشعر بشيء، ولا أعلم بما يدور حولي..

بعد أيام ستة– كما علمت لاحقاً– صحوت من غيبوبة طويلة، لأجد قدمي المتبقية معلقة في أعلى السرير، ولأجد بقايا الأخرى مشدودة إلى أعلى

ومثبتة في طرف السرير من الجهة الأخرى.. كان الموقف صعباً علي في تحمله لو أني أعرف النتيجة من قبل، ولكن مشهد الذعر مستمر في تفاصيله حتى النهاية..

*****

الجزء الثاني

دخلت بيروت في ليلة مظلمة، وتوقفت بي السيارة أمام مستشفى الدكتور أحمد النقيب.. لأول مرة اكتشف أنني لم أستطع إلا خداع ذاتي؛ لأن السيدة التي كانت تجلس هي وابنتها في المقعد الأمامي، حاولت أن تبثني بعض مشاعرها الجياشة، حين أصرت علي بعرض طلب الاستضافة في منزلها، ووعدت بإرسالي إلى المستشفى في الصباح الباكر هي وزوجها.

كانت هذه السيدة الجليلة، امرأة واثقة من نفسها، وينم مظهرها الخارجي عن انتسابها لشرائح المجتمع المخملي، وهي لا تبدو كبيرة في السن، غير أن ابنتها التي هي في صحبتها والتي تبدو وكأنها شقيقتها، تجعلك تعتقد بأنها في العقد الرابع من عمرها.. وأثناء تبادل الحديث الذي جرى معهما عندما توقفت السيارة أمام استراحة خاصة في بلدة شتورة، سألتني عن إصابتي، ولأنني بقيت جالساً في السيارة.. وإلى جانبي عكازتان، كنت أشعر بالحرج في السير بواسطتهما. أحضرت أم سناء شراباً وطعاماً خجلت من الاعتذار عن قبوله.

قالت أم سناء: لماذا أنت محزون، ومهموم، وتبدو الدنيا في عينيك غمامة سوداء؟

قلت: لا أدري، وهل لغير ذلك مكان أو مجال لدي؟ أنا لست مبتور الساق فقط، ولكنني مبتور القلب، والشعور، ومبتور الذاكرة والحلم..

أدركني الطوفان قبل أن أدق مسامير قاربي الذي تحطم قبل أن تتقاذفني الأمواج..

يا سيدتي: أشكرك على كل شيء، قبل شكري لك على الطعام، والشراب، وهذا الإحساس النبيل ذكرني الآن بأن لي سيدة كريمة ورائعة، لا تعرف عني شيئاً منذ عامين ويزيد..

كم أنت قاسٍ أيها القدر الذي أحكم حولنا القيود.. وجعلنا نرضخ لمشيئة الوحدة والفراق واللوعة، أكتب علينا ذلك أم نحن كتبناه باختيارنا ومشيئتنا؟

يا أمي، لو تسعفني الفكرة لأقول أقسم إني لاأخشى من شأني شيئاً إلا شأنك أنت.. ولا أعلم من أمري شيئاً إلا أمرك أنت.. ولا أرضى أن تتلظى روحي إلا كي تبقى صورتك الأقرب في أعماق القلب..

أحب بألا أنسى أني لن أنساك..
وأنا لا أخشى
إلا أن تنهمر دموعك ناراً

تحرق وجداني المتعب..

وأنا أقسم أن دمي لو يتدفق أنهاراً

لا يعدل حبة دمع من عينيك..

يا أمي

لا شيء لدي أصعب

من أن أقف أمامك مبتور القامة..

يا أمي

لا شي يعذبني غيرك،

سأغيب، سأظل وحيداً،

لا يعرف أحد عني شيئاً..

لا تحملني الأخبار إليك..

لأن وشاحي مغموس بدمائي وجراحي،

وعلى أوجاعي تحملني الرغبة

أن أركع بين يديك، وأقبل حتى قدميك..

لتنهض روحي كي أعلن للعالم أني حيّ..

لا تكسرني المأساة..

ولا تقوى أن تأكل لحمي النار..

سأقول لك شيئاً: قالت السيدة أم سناء وهي تلاحظ شرودي الذي أيقظني منه عودة الركاب الآخرين إلى المركبة: أنت متأكد أنك أصبت بحادثة سير؟! قلت: وماذا تعتقدين خلاف ذلك؟! أنا- فعلاً -أصبت بحادث تصادم كما قلت لك من قبل..

- إذن، فأنت لا تتقبل الأمر، ولا تتعامل معه كما يجب!

- ولكن، ماعساي أن أفعل؟

- قالت: أي انسان معرض لمثل ما أصابك، وعليك أن تكون أكثر تفاؤلاً..

هل أقول لك شياً خاصاً بي؟

- قلت: تفضلي.

- قالت: إن زوجي الذي أحبه، ولا أرى رجلاً أفضل منه في نظري، مبتور اليد، وهذا الأمر لا يشكل عائقاً له على الإطلاق، ولأنني لم أكن أتوقع المفاجأة، حاولت ألا تظهر على ملامح وجهي أثارها، فصمت وقلت في نفسي: أي خطأ ارتكبته حين كذبت على هذه السيدة الفاضلة؟!

- ولكن، هل صحيح ما تقوله الآن؟ وهل تطلق كذبة بيضاء ترد فيها على ما كذبت؟..

لا.. لا أظن ذلك. أنا كذبت عليها لأسباب تتعلق بذهابي نحو المجهول، فلا أحد يجب أن يعرف شيئاً عن حالتي غير الطبيب المعالج، وهو ما طلبه مني الشهيد القائد أبو علي إياد (عضو اللجنة المركزية) الذي استشهد بأحراش جرش عام 1971.

وقد علمت لاحقاً أنه هو الطبيب الذي أشرف على علاجه من قبل بعد الانفجار الذي بقيت آثاره واضحة في وجهه وساقه.

- ها.. لماذا تصمت وماذا تقول؟ قالت أم سناء.

- قلت: عن ماذا؟!

- قالت: ألم تسمع ما قلته لك؟

- قلت: بل سمعت.

- قالت: فما رأيك؟

- قلت: أنت سيدة عظيمة يا أم سناء..

فضحكت وانفرجت أساريرها، وبدأ الحديث بيننا يأخذ جوانب أخرى، فشعرت وكأنها ليست ربة بيت كما قالت بل هي طبيبة متخصصة في علم النفس.

ولعله من باب العرفان لها أن أعترف بأنها استطاعت بالفعل أن تنقلني من سواد الصورة وشرودها الذهني، إلى لحظات ممتعة هي أقرب ما تكون إلى هدنة مؤقتة، جعلتني أتحرر من القيود التي وضعتها في يدي، والأثقال التي حملتها وتعجز عن حملها الجبال.. وما كان ذلك يحدث إلا لأنني اكتشفت وبمحض الصدفة أنّ الوهم هو قبة مصنوعة من التعب النفسي، وأن رياضة النفس، كرياضة الجسد تماماً، وألحت السيدة أم سناء عليّ بالذهاب إلى المنزل، والتعرف إلى زوجها، ولكن الطبيب الذي كان على علم بموعد حضوري، كان قد أرسل عربة أقلتني من الباب إلى غرفة العمليات.

وفي اليوم التالي ظننت أنني خسرت الرهان لاعتقادي بأن السيدة وابنتها التي كانت تشاركنا الحديث بعضه بالإصغاء والاهتمام، ربما شعرتا أنني قد ضللتهما بعض الشيء، وربما استشعرتا بالأوضاع النفسية الصعبة التي كنت أمر بها، وأن موقفهما المترتب على ذلك، ليس إلا تعبيراً عن شعورهما الإنساني العابر، وما كنت أتوقع أن يترسخ لديهما خلاف ما قلته عن الإصابة، والحادث، والوصف، الذي أطلقت فيه لخيالي العنان عن حادث

السير المروع، وأنا لم أكن في تلك الفترة أعلم شيئاً مما أقوله، ولا دراية لي حتى في قيادة المركبات..

فجلست وحيداً في غرفتي بعد أن تمكن الطبيب من إجراء عملية عاجلة لي في ساقي اليسرى، وأمام عيني؛ إذ إن التحذير الموضعي جعل نصفي الأسفل معزولاً عن النصف العلوي، وعندما حاولت الممرضة أن تضع حاجباً يحول دون رؤيتي لما يحدث قلت لها: لا عليك، ليس الأمر صعباً؛ شاهدت ما لم أتوقع مشاهدته من قبل، وهو يساوي أضعاف أضعاف ما تعتقدين بأنه خطر.

فعل الطبيب كل ما استطاع لساقي المتعبة؛ وقوم العظم وازال شيئا من حدّته، ونظف الجرح من التهابه المزمن، وكانت يداه الرحيمتان بلسماً شافياً بأمر الله، فمنذ اللحظة الأولى، في اليوم التالي شعرت بالراحة التامة، وغمرني إحساس عارم بالتفاؤل.

وكانت هي المرة الأولى التي أزور فيها بيروت، التي ارتسمت لها صورة أخرى في ذهني من قبل، وإن أكن قد دخلتها ليلاً إلا أن ليلها كان نهاراً وكان نهارها نهاراً، وفي الحالتين كانت المدينة ترتسم في الذاكرة من جديد؛ الناس والأضواء والشوارع والمنحدرات والساحل والمتاجر، وساحة البرج والجبل، والأحياء كلها تتشكل في صورتها الجديدة، والمشهد كان متناسقاً في

ألوانه وأشكاله المتعددة، وتلك هي النظرة الأولى، العابرة لعروس تتهادى بجمالها وثرائها على شاطئ البحر الذي تتناثر حبيبات أمواجه مع تموجات الضوء الخافت وانعكاساتها التي ترد الروح، وتسحر العيون، وتحرر القلب من فورانه وغليانه وأرقه..

وبيروت هي المدينة الثالثة، التي أزورها بظروف الزيارة الخاصة، ومن قبل كنت في عمان المحطة الأولى، أبدأ مسيرة طويلة وشاقة بعدما أقعدني الفشل حتى عن مجرد التفكير في محاولة العودة إلى قريتي، وإلى وطني الذي هو هناك، امتداد لجمال الطبيعة وما حبا الله بلادنا من خصائص تفتقر لها بلاد أخرى، من تعددية التضاريس والمناخ والفصول وخلاف ذلك، وما يتحمله الجانب الروحي من رهبة الزمان والمكان وقدسيته..

كانت الصور تتزاحم في استحضارها واحدة تلو الأخرى، وكنت أحاول ان أصل من خلال استعراضها إلى لحظات انسجام وتصالح مع الذات، فالهدنة التي شهدت عليها السيدة أم سناء بتجلياتها ليست كافية في مواجهة الكم الهائل المتراكم من التعب، والتوتر، والانقباض، وخطر ببالي شيء آخر لم يكن في الحسبان، حيث قلت في نفسي بمرارة:

قد تكون هذه السيدة قد مارست جانباً من إحساس (الشفقة) الذي جعلها تنفعل في اهتمامها بي، وإلا فكيف تفسر مثل هذه المداخلة في شأني الخاص، والخاص جداً، عبر ساعتين عابرتين في زمن عابر؟!

هكذا هي صحبة الطريق والسفر، وهكذا يجب أن تكون عندما لم تحاول هذه السيدة أن تأخذ رقم الهاتف الخاص بالمستشفى مثلاً، أو هي لم تقدم رقم هاتفها لي.. والمشاعر الإنسانية حالات كثيرة من التراكم اليومي، تأتي وتذهب دون حساب، ولكن، كيف لم أتصور ذلك في حينه؟!

والشفقة إحساس أو سلوك كان غريباً وكريها، وسيبقى بالنسبة لي الرديف لصورة الضعف التي هي صورة مقيتة، وحين يضعف الإنسان في ذاته، وكم يحدث ذلك! فإن عليه أن يحتفظ بضيقه لنفسه، فلا يتراءى ضعفه للآخرين، والقوة سلوك رزين ومتوازن لا يمسه الادعاء في ظاهره وباطنه.

أحاول أن أرفع رأسي عن الوسادة، فأتراجع مرة تلو الأخرى، وفي كل مرة أحاول فيها أن أسند ظهري إلى مقدمة السرير، أشعر بصداع لم أشهد له مثيلاً من قبل، وحين أعود مرة أخرى إلى وضعي السابق، يتلاشى الصداع بسرعة ودهشة..

ماذا يحدث لي؟

كل شيء هادىء وساكن في مكانه، وساقي مشدودة لطرف السرير الآخر، وأوضاعي مستقرة تماماً، فلماذا ينتابني مثل هذا الصداع الرهيب كلما حاولت أن أحرر ظهري الذي التصق بالفراش كأنه قطعة منه؟! الحالة تبدو غريبة، ولقد بدأ الملل يتسرب إلى نفسي التي هي متشوقة حتى للخروج من قيود السرير وسطوته، كالجلوس في الشرفة المطلة على شارع ينبعث منه ضجيج الناس وحركتهم، أريد أن أخرج من الدائرة المحكمة الإغلاق، وآمل لو تمر الساعات والأيام لأغادر المكان كله، فكم قضيت في أجواء المستشفيات أوقاتاً صعبة ومملة!

جاء الطبيب في زيارته الصباحية الاعتيادية، وأجري فحصه الروتيني، واطمأن على كل شيء وقال: الوضع جيد، والحالة في تقدم وما هي إلا أيام معدودة وسنعيدك إلى جبهة القتال.. سمعت زينب ذلك فأصابها الذهول، وهي التي كانت قد صدقت الرواية التي نسجتها عن حادثة السيارة مثلها مثل الآخرين، والأخريات ممن تعرفت إليهن في هذه الرحلة..

قلت للطبيب والصداع والحركة: إن ظهري قد أصبح جزءاً من مكونات هذا السرير، وكلما حاولت أن أسنده إلى أعلى أرغمني الصداع على التراجع.. إن ذلك ما كان له أن يحدث في المرات السابقة.. قال الطبيب: الأمر مختلف هذه المرة.. فقد تناولت تخديراً موضعياً من خلال العمود الفقري، وسيستمر الصداع حتى تنتهي كل آثار التخدير.

كانت زينب ممرضة فلسطينية، تعمل في الجناح الخاص بالجراحة، ومنذ الليلة الأولى وجدتها تقف إلى جانبي، وتحاول أن تسهر على راحتي، ضمن مجال اختصاصها، بشيء من الاهتمام الزائد.. وعندما سألتني عن حالتي قلت لها حادثة سير، ولكنها بقيت متشككة في ذلك، وحين أفصحت عما تعتقد أنه سبب الإصابة، قالت: ألا تعرف ممدوحاً وبلالاً وآخرين؟ فعلمت أنها تعني زملاء لي كانت إصاباتهم طفيفة، وكانوا قد تلقوا علاجاً سريعاً من قبل .. وعندما أنكرت معرفتهم زاد الشك لديها إلى أن افتضح الأمر كله في حضور الطبيب المعالج..

بقيت زينب وحدها في الغرفة بعد مغادرة الطبيب ومراقبته، وظلت تنظر لي باستغراب طوال الوقت ..

نظرات لا ينقصها الاستغراب واللوم والعتب.. فقطعت حبل أفكارها ونظراتها المركزة.. وقلت:

زينب، أريد بعض القهوة ..

قالت: ممنوع.. سأحضر لك شاياً..

قلت: بل قهوة وقهوة فقط، ولا أشرب غيرها...

وذهبت زينب ودخل آخرون في موعد الزيارة الذي يبدو وكأنه قد استحق بعد انتهاء الأطباء من جولاتهم الصباحية. وكانت المفاجأة؛

وضعت السيدة ورودها جانباً، وسلمت هي وزوجها بحرارة وود كبيرين، شعرت بارتياح كبير لم أشهده منذ الأحداث الأخيرة التي مرت بي، وجعلتني منقلباً ومنكفئاً على ذاتي دائم الهم ومشغول الفكر ومشرد المشاعر.

ثم جاء ممدوح وبلال وآخرون، وفي سياق ما جرى من حديث اكتشفت السيدة أم سناء الأمر وتيقنت حينها بأنني فعلاً خسرت الرهان، لأن هذه السيدة الذكية لم تكن لتنطلي عليها الخدعة، حين قالت كنت أعلم أنك تختلق رواية أخرى، ولكنني لم أتراجع عن ظني رغم ذلك، عندها عرفت أن الموقف كله لا يتعلق بحالة شخصانيه فقط، وإنما هو تعبير إنساني رائع عن حالة النهوض الاجتماعي والتلاحم الشعبي الذي بنت عليها المقاومة الفلسطينية جسوراً من العلاقات والنسيج الآدمي القوي المتماسك.

يا بيروت: حملتني إليك الصدمة..
ورماني تحت جناحيك الحرمان..
جئت على ساقي المتبقية بعبء الكون
وهموم الدنيا..
كي أشهد أني منذ امتلأت رئتاي بهواء البحر..

ومنذ انتعشت روحي

فيما لي من جسد باق..

وانطفأت في ذاتي نار الغربة ..

فلقيت أناساً يحترمون الإنسان..

ولقيت زماناً ومكاناً آخر

في أشلاء الوجد وأعماق الوجدان..

أسكن بين ذراعيك الآن..

أنسى أني مطعون في القلب

ومطعون في الظهر

ومهزوم حتى في السطر الأول

والعنوان..

يا بيروت:

أتيت أجدد لي سفراً يحملني

منك إليك..

فماذا ينبئ روحي

زمن الخوف المزمن؟

يوم تضيع الأوطان..

وماذا ينبئ قلبي البحر،

جواباً..

وعتاباً ..

وزجاجاً يطحنه الحرمان..

خذلتني أوردتي

قبل شرايبني

وتنكر لي زمن مرّ،

غرقت فيه الأزمان..

الآن .. الآن.. الآن.. الآن

ويا فيروز..

لم تقرع أجراسك حتى الآن..

والقدس عروس عروبتنا..

القدس عروس عروبتنا..

لكن الآن الآن.. ليس الآن..

وإلى أن يخرج من خرم الأبرة غول،

تخرج من أحشاء الفكرة، غيلان..

غيلان..

غيلان..

تقذفنا فوهات البركان..

يا بيروت:

أشهد أن الراية لا تعلوا بالخذلان،

يا بيروت:

أشهد أن القصة لا تطوى بالنسيان،

يا بيروت:

والقصة أبعد من أن يهزم طغيان،

طغيان..

القصة أين يكون الولهان؟!

وأين يلوذ الإنسان؟!

كان أبو سناء والسيدة حرمه إنموذجين لبنانيين رائعين لم تنقطع علاقتي بهما حتى بعد خروجي من لبنان، ولقد تعززت العلاقة معهما أكثر عندما علمت أنهما من ضحايا الاعتداءات الاحتلالية على لبنان، وأنه فقد ذراعه اليسرى، نتيجة لإحدى حوادث الانفجارات، وأنه يتخذ الشعر قراءة، وكتابة، كهواية،، وموهبة من مواهبه المتعددة، فإلى جانب إتقانه العزف على العود كان يجيد الرسم، ويقضي وقتاً ممتعاً فيه ويجيد الغناء، لكنه لم يتخذ هذه المواهب فرصة للتعبير عن ذاته بالاستمتاع الشخصي فقط، ولا يتطلع إلى ما هو أبعد من ذلك؛لأنه منصرف عنها في تجارته التي تدر عليه أرباحاً طائلة.

ذهب ممدوح وبلال، وغادر أبو سناء وزوجته، وتركا هاتف منزلهما هذه المرة، وأكدا دعوتهما لي مرة أخرى ووعدا بتكرار الزيارة.

قالت زينب: من هؤلاء؟!

قلت: هؤلاء لبنانيان تعرفت إليهما مؤخراً..ولقد شكلا في ذهني إنموذجاً لجميع اللبنانيين في خصائص المجتمع اللبناني التي عرفتها لاحقاً.

لكن زينب لم تكن قادرة على استيعاب ما قلته بانسجام، ذلك لأن قناعاتها في أجواء المعاناة التي يعيشها الفلسطينيون في لبنان تختلف بعض الشيء.. وزينب فتاة من مخيم صبرا حباها الله بمسحة جمالية رائعة، وهي حالة استثنائية من حالات منع الفلسطينيين من العمل إلى جانب القيود الأخرى المفروضة عليهم تحت مبررات الحفاظ على شخصيتهم وحق العودة لهم.. لكن- والحق يقال- هذا الحرص لم يطبق إلا في الجانب الذي يخدم مصالح بعض الجهات المتنفذة هناك، فالانتماء الفلسطيني لا يجوز ولا يكون بحرمان الإنسان من بعض استحقاقات إنسانيته..

ومع مرور الوقت شعرت بأن زينب تزداد اهتماماً بي، وأنها أصبحت تقضي وقتا من عملها في ذلك وحاولت أن أنبهها لذلك حرصاً على أ لا تفقد وظيفتها أولاً، وحرصاً على تلبية احتياجات المرضى الآخرين، ولكنها لم تكن تكترث..؛ فهي تتمتع بشخصية قوية.. وتتصرف بسلوك لا تنقصه

الثقة، والاعتداد بالنفس.. فكانت تودعني في المساء وتوقظني في الصباح، وأصبحت العلاقة بيننا يوماً بعد يوم ذات معنى، فقد شعرت نحوها بما شعرت، وكأننا نتبادل الشعور معاً.. لكن المشكلة الكبرى هي أني غير مقتنع بالارتباط مطلقاً، والأسباب واقعة ومشروعة، أولها أن أبا العلاء المعري كان قد أوغل كثيراً في ذاتي بأشعاره التي وجدت لها مناخاً مناسباً في الذات.. فظللت أردد معه: هذا جناه ابي عليّ وما جنيت على أحد..

وبحكم التجربة ومرور الوقت فإنني لا شك أخطئ موقفي هذا، وأخطئ أبا العلاء المعري ذاته، وأخطئ من اختار النصوص التي تشبه ذلك لتكون في منهج الدراسة والتدريس، خاصة وأن فترة عنفوان المراهقة تشكل مناخاً مؤاتياً لارتهان الاندفاعية الشبابية نحو معتقدات خاطئة وغير ذلك، فالحياة يجب أن تبقى ويجب أن تستمر، والعالم لم تخضعه المثاليات الأفلاطونية لمنطقها ومجالها الحيوي في الخيال، فلماذا تخضع الفلسفة الجانحة والحالة اليائسة وجدان الأجيال، فتشوه إقبالهم على الحياة بمعطياتها ودون تعقيد؟

قلت لها.. آسف يا زينب..

أصدقك الآن خير من أن أخذلك غدا..

قالت لماذا؟ وكان صوتها قد أخذ.. واختلف لونها.. وبدت غير قادرة على انتظار الجواب، وغادرت المكان، لكن خطواتها كانت أسرع من دقات

قلبي المتسارعة، فلقد وجدت في زينب وأحببت فيها أشياء ليست موجودة في اخريات.

ولأنني أكره الضعف أيا كان لونه، ولا أدين لفلسفة القوة طغيانها، فقد ظللت أعتقد أن ضعف المرأة الموروث والمتراكم ما هو إلا نتيجة لخلل في ظروف المرأة، وليس لتكوينها الفسيولوجي؛ أي أثر بإخضاع الفكرة لسقفها على كل المستويات حتى وإن كان هناك تمايز بين الرجل والمرأة، فيجب ألا يتحول الضعف إلى صفة جمالية في المرأة وهكذا.

خرجت من المستشفى وعرضت عليها ما هو أكثر من الصداقة، لاعتباري أخاً خذلته الظروف، واستوطن في داخله الحرمان..

حملت أوراقي وأمتعتي وسرت بصحبة" أبو الحسن" إلى المكان الذي اتخذته داراً للنقاهة لفترة أستطيع فيها استكمال العلاج بناء على تعليمات الأخ أبو علي إياد، الذي هاتفته قبل خروجي من المستشفى، فاستقرت بي الحال في مقر المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في بيروت قرب جامعة بيروت العربية.. إحدى الجهات اللبنانية التي كانت ترتبط بالمقاومة ارتباطاً وثيقاً.

كان أبوالحسن أحد الأخوة العاملين في المجلس.. وكان قد هيأ لي المكان المناسب للمبيت.. وبقي ملازما لي طوال الفترة التي قضتيها هناك.. وفي ذلك الوقت لم يكن النشاط التعبوي للمقاومة الفلسطينية قد أخذ منحى في

اتجاه لبنان كله.. وحتى العمليات الفدائية التي كانت تحدث في شمال فلسطين لم تكن تعد أو يجهز لها من الأراضي اللبنانية؛ لعدم وجود قواعد متحركة أو ثابتة آنذاك.. وكانت مرحلة تتسم في أحوالها بحالات من التحفز والانطلاقة بالنسبة لي على الصعيد الشخصي، فقد استكمل أبو حسن ما بدأته أم سناء وزينب وممدوح والطبيب أحمد النقيب، هؤلاء الذين شعرت نحوهم بامتنان واحترام وتقدير خاص لإنسانيتهم المتميزة تماماً، مثلما شعرت أنني مدين لمن سبقهم في ذلك السلوك الآدمي خلال الفترة التي قضيتها في دار النقاهة التابعة للهلال الأحمر الفلسطيني في عمان، خاصة الأخت أم يوسف والأخت رقية بنت الشهيد عبد الرحيم محمود ود. فتحي عرفات. رحمهم الله.

قال أبو الحسن: لست مطالباً إلا أن تطلب، فأنت هنا عند أهلك تماماً.. ولست ضيفاً وإن كنا نحن جميعاً في ضيافتك.. وهذا الرجل يتقن الكلام ومهارته حتى أنني خلته يقول شعراً وهو يتحدث معي حديثاً عادياً.

كان أبو الحسن متديناً بالفكرة لا بالفطرة، وكان التعصب لا يعرف طريقه إلى نفسه.. وحتى مفاهيمه التي بين يديه هي وليدة قناعاته لا أكثر، وقلما كان يقتنع بمالا يجب أن يقتنع به.. وكان يقرأ كثيراً.. ويكتب كثيراً، وكثيراً ما كان يطلب إلي الرأي في كتاباته وأقواله، والحق يقال إنني –خلال الفترة التي كنا بها معاً – اكتشفت أن لديه مخزوناً هائلاً من الشعر.. ومخزوناً

هائلاً من المعرفة وكثيراً ما كنت أدون أبياتاً من الشعر على لسانه لأهميتها، وأذكر من هذه الأبيات قول الشاعر العربي:

أزرع جميلاً ولو في غير موضعه فلن يضيع جميل أينما زرعا

إن الجميل وإن طال الزمان به فليس يحصده إلا الذي زرعا

عرفت لبنان بشماله وبجنوبه، ببقاعه وبجباله، وشواطئه الجميلة، وعرفت فيه حجم البؤس الذي يلف أجواء مخيماته، وما تعانيه من أحوال صعبة وظروف بالغة القسوة، وان تكن أوضاع المخيمات الأخرى في البلدان المجاورة ليست أفضل حالاً من مثيلاتها فيه.. فإن الواقع يدل على أن النكبة ضاربة جذورها في أذهان البعض، وأن الجدية والحرص في التعاطي مع آثارها فيما يتعلق بالشأن الفلسطيني لا ينتسبان للحقيقة في شي، وأنه الرهان الأجوف الذي كان سبباً في صناعة المعاناة، كان كذلك سبباً في تسويقها، وسبباً في استعذاب الألم حتى تنبعث من رماده أجنحة اللهب التي تلفح وجه الزيف المتصعر، وتصفع صفحته السوداء..

ولم يكن الشعب اللبناني المستنزف في مناطقه المحرومة هو الأخر.. إلا مضيعة لنزيف الضيعات، وعلى الوجه الآخر للصورة، كانت تتزاحم أرحام قيان ودهاقنة الوطن المنهوب.. ودهاقنة الوطن المسلوب..

قال صديقي أبو الحس: النهر يتبع مجراه، والشمس تذهب وتعود، والزمن يسير في دورته ويدور.

خرجنا من المخيم.. ولكن صورته لم تخرج من أذهاننا، وأطفاله الذين كانوا يحاولون اقتناص لحظات فرح لهم وسط الركام والحطام كانوا هم محور اهتمامنا، وتطلعنا نحو القادم بكل متغيراته، فمثل هذه الطاقة التي تتفاعل على هامش الحياة، لا يمكن أن تظل مهمشة كل الوقت، وهي- أيضاً - بفعل القسوة والمعاناة والتمرس في تراكمات المأساة لا يمكن أن تؤول إلى قوة مستلبة..

المخيم، والمأساة، وفوهة البندقية، معادلة ثلاثية سوف تشكل عنوان المرحلة التالية، ويدور المخيم في خلد الفكرة كمكان آمن لحماية الثورة، وحماية نفسه من استمرار التهميش؛ فليست الأرض المحتلة هي المحتلة فقط، فمثل هذه المواقع التي تخضع للقوانين الجائرة، هي- أيضاً - مناطق تحتل وتستلب إرادة الناس فيها، بإكراههم على العيش في أدنى ما وصلت إليه، وتفتقت عنه عبقرية أصحابه وساديتهم.. إن الصورة المقابلة لذلك في ذهني كانت- ولم تزل -هي محاولة أحد الآباء تعريض ابنه الصغير لأشد وأقسى ظروف التربية، التي تصل حد الضرب المبرح له على صغره، حتى يدخل إلى عالم الرجولة مزوداً بكل ما يمكنه من مواجهة قسوة الحياة، بل ولتجعل منه شرساً، وقاسياً لا يقوى أحد على عناده والتصدي له.

ولكن، أهذا هو الحب فقط أو هكذا يوجه الأبناء.. أو هكذا تساق الإبل؟!

في مكان آخر من العالم العربي كانت تحضرني الصورة بشكل مغاير تماماً، عندما دعيت لإلقاء بعض قصائدي هناك، وحضر إحدى الامسيات شاعر من القطر المشار إليه، وقد أبدى إعجابه ببعض قصائد الأمسية، وطلب إلي تلبية دعوة خاصة لزيارة المعهد الخاص به الذي يديره في العاصمة.

كان الوقت آنذاك قد جاوز أحداث أيلول عام 1970 في الأردن، وكانت المقاومة الفلسطينية بعد هذه الأحداث تحاول أن تشق طريقاً آخر نحو موقع آخر أكثر أمناً لاستمرارها وتواصل نضالها.

قال المضيف، قبل أن تصل قهوته التي لم تصل:

أخي، أنتم الفلسطينيون مقصرون كل التقصير بحق قضيتكم العادلة، وأنتم لو أخلصتم النية لكان بإمكانكم إحداث التغيير المطلوب في كفاحكم ضد الاستعمار، والاحتلال الصهيوني، فما رأيك؟!

قلت: إني أستمع.. فأنت يا صديقي لم تأت بجمله مفيدة حتى الآن، والتساؤل قائم: فما وجه التقصير.. وما سر النوايا؟!

قال: لي ابنة تدرس الموسيقى في أحد معاهد الموسيقى تعرفت إلى زميلة لها من فلسطين تدرس معها الموسيقى، والمفاجأة المذهلة أن هذه الفتاة كانت ابنة سفيركم هنا..

قلت: ولكن، ما شأن ذلك بالتقصير والنوايا؟!

قال: ألديكم الوقت الكافي لتعلم الموسيقى؟ هل أنتم تسخرون طاقاتكم في النضال من أجل فلسطين؟ لماذا تركضون وراء الحياة بلا وطن؟ وأفاد بجملة اعتراضية، أنه التقى محمود درويش ومعين بسيسو وتحدث معهما الحديث نفسه.

قلت: يا صديقي (خالص النية)..

أولاً: لم يبق إلا أن تستكثر حلق شعورنا، ولحانا، أو تطلب إلينا ارتداء الملابس الرثة، لكي نستثير (الشفقة) ويبقى غرور العطف يدفع أصحابه بإحساس المتعة السوداء.

ثانياً: نحن لا نقبل عطفاً ولا شفقة ونقبل المشاركة والفعل في القاسم والمقسوم، فإن كنت مخلص الدعوة من حق أبنائنا أن يتعلموا الموسيقى التي تتعلمون، ومن حق شعبنا أن يقاتل بشراكة النضال، وبظروف الثورة وما

تشكله من أمل ورجاء لا بظروف البؤس والحرمان، ومن قال إن الذي يأكل جيداً، ويلبس جيداً، لا يقاتل كما يجب أن يكون القتال؟!

وقلت: صديقي المضيف، شكراً على ضيافتكم قبل أن تصل وكلمة واحدة فقط: نحن نبحث عن شعوركم وإحساس بالاستهداف كما نحن مستهدفون، ونحن نتحمل عبء (الخط الأول) وعندما تقتنعون بأنكم في دائرة الاستهداف، أرجو ألا يكون الوقت قد أصبح متأخراً.. ولا تنسَ (الخط الأول) فهو عنواننا الثابت.

سقت هذه الحادثة لأصل إلى قناعة مع نفسي والآخرين بأن هذه الفترة التي سبقت مراحل النضال الأخرى المحددة، كانت قد شهدت تسابقاً في أقطار الوطن العربي، وتسارعاً للتخلص من تبعات المراحل الأولى للمدّ القومي الذي شهدته المنطقة، فما إن رحل الزعيم الخالد جمال عبد الناصر حتى بدأت عقارب الساعة تدور دورتها العكسية، فأبقت بعض الجهات التي مارست نوعاً من ذكائها الخاص شعارات العمل القومي، دون مساس في الوقت الذي كانت تمارس فيه على الأرض عكس ذلك تماماً؛ فتحت شعار الحرية تم اغتيال الحريات كلها ، وتحت شعار الوطنية.. مورست أشكال الخيانة والتآمر كلها.. وتحت شعار القومية تم تمزيق البلاد والعباد، وأصبح الحكام في واد وشعوبهم في واد آخر. غير أن هذه الممارسات في حجمها التراكمي الهائل، وفي إطار برمجتها كدروس غير مباشرة وبفعل ضغوط الواقع

القائم بمادياته، كانت قد تسللت إلى السواد الأعظم من الناس في تفكيرهم الذي أصبح خاضعاً لكل التحولات المطلوبة، والشارع العربي- أصلاً- تصح فيه المقولة: (بأنه من شدّة الترغيب والترهيب والإرهاق والتعب.. يؤول أمره وسره لمن غلب)..

لذلك لم تجد السياسات المنحرفة مقاومة تفضح زيفها وكذبها وافتراءها وتجنيها على الحقائق.. ولم تتوقف عند حدود ذلك بل تجاوزت إلى حد استثمار متطلب إظهار الشخصية الوطنية في وجه تحديات إنكار الوجود الفلسطيني، لتتخذ من ذلك سبيلاً وذريعة للتقوقع، والهروب، والإفلات، من كل التزام على صعيد هموم الشعوب العربية، وهموم قضية فلسطين على وجه الخصوص.

فكانت الشعارات التي تعبر عن ذلك: "تقبل بما يقبل به الأخوة الفلسطينيون".. حتى أصبح الفلسطينيون وحدهم يصيحون في وجه الاعتداءات والحروب (يا وحدنا) (يا وحدنا)..

قال أبو الحسن: اليوم أكملنا دوراناً مضنياً حول الأرض، شرقاً، وغرباً، وجنوباً، وشمالاً.. وعلينا أن نحمل حصيلة جهدنا إلى المطبخ.

قلت: أجائع يا أبا الحسن؟!

قال: الخوابي الكائنات في العقل الباطني هن الجائعات.. لقد تزودنا في هذه الرحلة بما يكفي لاختزان التجربة القادمة على ما أظن..

قلت: هل فعلنا؟..

قال: أظن أن (القبس) سيقدح شرارة البدء، وأن الظروف مهيأة لما هو آت..

قلت: لا تذهب بما هو أبعد من الواقع في حدود الخيال.

قال: أنا في المجال الحيوي الذي نراه واقفاً ينهض في الخيال..

وشيئاً فشيئاً تتكشف الأسرار.. ويتراجع الغبار، وتصعد الحقائق..

قلت: ربما تبعث إشاراتك الضوئية النور الكافي في انعدام رؤية التوجه في قيادة المركبة ليلاً؛ فالنور المنبعث من الركن وسط الظلام القوي غير كاف على ألبتة.

قال: مهارة القيادة ليست حكراً على الظلام، والنور، رغم أهميتها، ولكن الحدس له دور مهم في شأن القيادة أحياناً، فالتقديرات التي يقوم بها العقل في مستوى المسافات، وتوقعات الحركة هي معادلة رياضية بحد ذاتها..

قلت: أرجو أن يظل (حدسك) فاعلاً وفي قوة الملاحظة..

قال: غداً ستختمر في وجدانها الأحداث والصور، ومن يدري فقد تتحول المعادلة إلى قانون، ويأتيك بالأخبار مالم تزود..

قلت: لا أخالفك الرأي، منطق الأشياء يدل عليها، فالهشيم هو الذي سيؤجج النار إن اشتعلت، وهي قادمة لا محالة..

وصلنا المقر عند الساعة الحادية عشرة ليلاً.. وكنت متعباً ومرهقاً ومتوتراً، كانت ذاكرتي تسترد شريط الحركة كما تعودت ذلك قبل النوم، وكان صديقي أبو الحسن قد غادر المكان عائداً إلى منزله، ولم يبق أمامي إلا محاولة النوم، والخلود للراحة بعد جولة طويلة أعتقد بأنها الجولة الخامسة والعشرون، فمنذ خروجي من المستشفى لم يتركني أبو الحسن يوماً واحداً، بلا جولات وصولات.. قلت: أنام مبكراً.. فغداً نحن على موعد مهم مع اختصاصي الطبيب في مستشفي الجامعة الأمريكية..

غداً سيتحدد مصير هاتين العكازتين، فإما أن تصبحا على هامش الحركة بالنسبة لي، أو ستظلان إلى الأبد ملازمتين لي في القيام والجلوس والمسير، ما أسوأ أن تتحول ذراعاك إلى عصى تخط لك الحركة! ما أسوأ أن تستبدل ساقاً حقيقية بأخرى مستعارة! ترى! هل ستعود إلى قدرتك في الحركة والسير والركض من جديد؟

أتقول الركض؟! أنت العداء الذي كانت ساقاه تسابقان الريح.. وأنت الذي مشيت على الإسفلت في ظهيرة الأيام الأشد حرارة في الصيف حافياً.. عشرات الكيلومترات قطعتها في ذلك الوقت حتى نزفت قدماك ماءً ودماً، ولم تتوقف عن السير..

نعم تسير وتسير.. ولا تنقصك الإرادة!

كانت الأفكار تتزاحم في ذاكرتي، ومرت دورة النوم الأولى دون أن أغمض عينيّ.. هكذا كان يحدث لي ولم يزل كلما كنت على سفر في اليوم التالي، أو كان لي موعد مهم، أو عمل ما أعلق عليه آمالاً كبيرة، فهل أنا على سفر في الغد أو أن لي موعداً هاماً أو لدي عمل أعلق عليه آمالاً كبيرة؟! لقد تجمعت الأسباب كلها هذه الليلة، فمن سينام وكيف ينام طالما هو في زحمة الوقت والليل يقلب الأمور ذات اليسار تارة وذات اليمين تارة أخرى؟!

بقيت على هذه الحال حتى الفجر أغالب النعاس، فأغلبه تارة ويغلبني، حتى سقط عند الفجر، فنمت نوماً عميقاً، لم أفق منه إلاعلى صوت صديقي" أبو الحسن"، الذي جاء كالعادة على عجل، يطلب سرعة الاستعداد ذهاباً إلى الموعد.. وبسرعة البرق أنهيت كل شيء وشربنا القهوة معاً.. وتوجهت بصحبته إلى مصنع الأطراف.. وما هي إلا دقائق معدودة

حتى أحضر الخبير الفني المتخصص تصميماً أولياً أعده وفق القياسات، وتفحص الجرح والعملية التي أجريت في ، وقال كلمة واحدة: (جيد) الوضع جيد، وبإمكانك الآن أن تلبس جورباً خاصاً،وأن تدخل الساق في الساق ثم تشد الوثاق، ثم عليك أن تتدرب على السير في مكانه المخصص، وأشار إلى ممر بينه ماسورتين ترتفعان عن الأرض بالقدر الذي يكفيني الاتكاء عليها في البداية إن شعرت بألم، ثم أتخلص من عملية الاتكاء شيئاً فشيئاً إذا استشعرت الراحة في السير، وطلب إلي أن أبلغه بمواقع الألم وعدم الراحة إن وجدت..

خطوت خطواتي الأولى.. وكدت أقع على الفور لولا أنني أمسكت بالماسورتين، واستعنت بهما على الاستمرار في وقفتي وانتصاب قامتي التي كانت تنحني كلما شعرت بالتعب من بقايا آثار الجرح المرسومة، كأنها الوشم الذي لا سواد فيه، وأن اللون الأسود كان قد استعيض عنه باحتقان الدماء المستنفرة في ساقي لمواجهة الجسم الغريب، كنت أشعر بأن العملية التي أجريتها مؤخراً في مستشفى الدكتور أحمد النقيب، ستفتح لي باباً من المعاناة الجديدة بانفراط عقدها أو (قطبها) بعد أن التأم الجرح، وزالت آثار التهابه.. قلت للطبيب: أشعر بوجع شديد هنا، وضغط شديد هناك، كأن شيئاً يكسر قامتي، فلا أقوى على الانتصاب وقوفاً بهذه الخشبة التي لا تجري فيها

شـرايين الشـعور والإحسـاس.. لا يوجـد أمـل في التفاعـل بـين الشـعور واللاشعور..

قال الخبير: من قال لك ذلك؟ انتظر قليلاً، وستكتشف ما بين الميت والحي، وما بين الشعور واللاشعور، من لغة واتصال يا عزيزي، لست الأول ولا الأخير.. وهـذه ليسـت محاولـة تجريبيـة، هنـاك آلاف مؤلفـة يسـتخدمون الأطراف الصناعية، وبعض الناس تنتصب قاماتهم على ساقين صناعيتين.

آجـرى الفـني بعـض التعـديلات علـى أمـاكن محـددة في جـوف السـاق الصـناعية، وقـام بتثبيـت القيـاس الـدقيق لطولهـا، الـذي يتناسـب مـع طـول الأخـرى تمامـاً.. وطلـب إلي مـرة ثانيـة محاولـة السـير خطـوة خطـوة في ممـر التدريب..

أحسست في البداية إحساس من يتقن السباحة نظرياً، وعندما يحاول ذلك عملياً يجد نفسه في عالم آخر، بقيت أتنقل خطوة خطوة في الممر ساعة كاملـة في البدايـة، وشـعرت بعـد ذلـك أن اعوجـاج ظهـري بـدأ يسـتقيم مـع السـير، وأنـني بـدأت التنقـل دون النظـر إلى قـدمي، وكـأن ذلـك هـو التقـدم المطلوب كما أوضح لي ذلك الخبير الذي طلب أن أستريح، ومعاودة الكرة مـرة أخـرى ولمـدة سـاعة إضـافية أخـرى.. بـدأت أشـعر بالارتيـاح النفسـي، وبدأت أفكر في المستقبل، ولم يعد ذهني مشغولاً بكيفية الحركة، أو العكازتين

أو ما شابه ذلك، وبعد اكتمال ساعة أخرى من التدريب عاد الخبير الفني، وقال وهو يراني أكثر سرعة في الحركة من ذي قبل: الآن أستطيع أن أقول لك مبروك، لقد أصبح بإمكانك العودة لممارسة الحياة الاعتيادية، وما عليك إلا أن تواصل التدريب لمدة ثلاثة أيام أخرى على الأقل.. وإن شئت فأمامك أسبوع كامل، والآن تأخذ قسطاً من الراحة وتعود في صباح اليوم التالي..

كنت لا أشعر بأي قدرة في السيطرة على العضو الجديد، الذي أصبح جزءاً مني .. وكنت أعتقد أنه هو الذي يقودني إلى جموده وبلادته، وأنا لا أفعل ولا أحاول أن أطوعه لحركتي وحاجتي.. وقد حدث ذلك بالفعل، ولكن ليس بإرادتي وإنما من خلال العامل اللارادي الذي جعل هذا الشيء يؤدي وظيفته في سياق الحركة الإرادية واللاإرادية في جسدي، وبفعل التراكم الأدائي في الحركة، أحسست أن بإمكاني جعله أكثر طواعية من الأعضاء الأخرى لسبب واحد هو أن التركيز الذهني في الحركة الكلية يخص هذا العضو بأعلى نسبة تماماً، كما هي الحال في حالات التعويض الأخرى التي يعتقد بأنها تأتي نتيجة تعويض إحساس مفقود بتعزيز آخر موجود.

وبعد أيام استكملت فيها كل مراحل التدريب خرجت إلى الشارع على ساقين تؤديان وظيفة السيروبدون وسيلة إسناد أخرى حتى أن العصا التي

نصح لي الخبير باستعمالها مدة محدودة ألقيتها جانباً منذ البداية حتى لا أتعود استخدامها بشكل دائم.

وبعدما أصابني من تحفيز معنوي وثقة متجددة، لم تغادر مكانها لدي في الأصل تماماً.. قررت في اليوم التالي أن يتضمن برنامج الحركة لدي زيارة الأصدقاء، أم سناء وأبو سناء وزينب وممدوح وغيرهم، وكانت زينب أكثرهم فرحاً وسروراً.

قالت زينب: وماذا أنت فاعل الآن؟..

قلت: ليس أمامي سوى الرحيل.

قالت: ولماذا الرحيل؟ وإلى أين؟

قلت: لا أدري ولكني سأعود من حيث أتيت ثم..

وقاطعتني قائلة: ثم ماذا؟ ولماذا تذهب إلى المجهول.. وأانت لو اخترت وقدرت لاستقر لك الرأي وطاب البقاء..

قلت: وهل بمقدوري الاختيار فعلاً؟!

لقد اخترت وقررت من قبل في أمور كثيرة وسقط رهاني، الأقدار تقودنا إلى ما لا قدرة لنا فيه على الاختيار..

قالت: ومتى سترحل إذن؟..

قلت: في صباح اليوم التالي..

قالت: وفيم العجلة؟

قلت: العالم كله مسكون بالعجلة، اليوم هنا، وغداً هناك ومن يدري، ربما يخيم في أجنحة الخيل والليل، من لا وطن له لا استقرار له!

قالت زينب: قرأت رسالتك التي تركت.. وحاولت أن أقنع نفسي بما تضمنت، والحق أقول لك إن تقديري لظروفك ومعاناتك لا تعني القناعة بما ذكرت، ولا أخفي عليك أنني توقعتك أقوى من الضعف الذي غلف الكلمات، والمبررات التي سقتها، وحتى تصبح المعادلة أكثر توازناً يجب أن تخرج من ضعفك إلى قوة القرار، ليس في شأن واحد فقط، ولكن في أشياء أخرى، فالحياة مليئة بالمتناقضات والصعاب والمصائب.

قلت: يا زينب، أكثر إنسان قد يكون يتعرف على مواطن الغضب الذي انتابته هو أنا، وفيما يتعلق بالحياة فلا أحب أن أتخرج من مدرسة الوهم، لقد صدقت وما تقولينه هو الصواب، كأنك تتحدثين من داخلي.. ولكن سمة هذا الحال أنها خارج دائرة القرار في ذاتي.. وهي رهينة للصراع الذي سوف تحسمه إرادتي التي لم تهزم تماماً..

ربما تخرج من قلبي شرارة

ربما أبدأ في سري امتحاناً

واستخارة

ربما أني ترددت قليلاً وقليلاً

غير أن القلب في الأعماق

مكسور العبارة..

إنني حتى اذا ما شئت

فلا أخشى الخسارة..

ربما أخرج من سريّ

وتسبقني الإشارة..

ربما كنت وما زلت،

وتبقين على السرّ،

وشاحاً وسوارة..

وتظلين سمائي الممتعة..

وتظلين ظلالاً لكؤوسي

المترعة..

أنت .. لا .. لا .. أنت

في قلبي تشكلت

حروفاً أربعة..

كان أبو علي على الجانب الآخر من الهاتف، أحدثه عن أحوالي مساء ذلك اليوم.. ويفرح كثيراً عندما يعلم بأنني قد انتهيت من رحلة العلاج، والاستشفاء، فيتطلب مني البقاء ما شئت قبل العودة إلى دمشق.. فأخبرته بأنني عائد في صباح اليوم التالي..

أحببت بيروت وأحببت لبنان وأهله الطيبين.. ولم أذهب إلى كل المدن والبلدات فيه.. ولكن المخزون الهائل لدي، وما استجمعته في وجداني، وذاكرتي من صور، سيكون له أثره الذي يدل عليه يوماً ما.. فالجمال لا يتأتى في صوره التجريدية، رغم كونها نتيجة حتمية لكل الحسيات والمعنويات المتدفقة في شرايين الحياة كما تتدفق الأنهار، واكتناز البحر لكل المياه المتجمعة، هو اكتناز الوجدان لبث الشعور الحسي بالقيم الجمالية، وإذا كانت القيم والسلوك الإنساني وحدة لا تشكل حالة اكتناز الشعور الكلية، فإن المجرى الآخر في قانون الحياة، قد يكون كريها ومقيتاً، ومن مصادرها تنضح الأواني؛ ذلك أن القلوب تختلف في سوادها وبياضها، فالخير والشر لا يجتمعان إلا بما تفرقا.. ورسالة الخير في لبنان ليست ممهورة بخطوط حمراء، حتى نقول إن دماء تنزف من عروق الجبل.. والسهل.. والبلد والقرية والمدينة والمخيم.

لبنان معادلة للضعف والقوة.. النهار والليل.. الحياة والموت.. فأين السؤال وأين الجواب؟!

كانت أسئلة كثيرة تحتل الزوايا المتبقية من مساحة شرودي، وانشغالي الذهني المتواصل، وكنت لا أشعر بالقلق والحزن في مغادرة المكان، رغم قوة اتصالي به، ذلك لأن الوحشة كانت قد اغتالت فيّ هذا الشعور، فبعدما استقرت عليه أحاسيسي بمشاعر الفرح الذي انقلب حزناً في المرة الأولى والثانية بت غير آسف على فقدان مكان الألفة المؤقتة، بانتهاء الأمل في استعادة الألفة الدائمة في مكانها الأولي..

يا وطني المسلوب.. يا وطني المنهوب..
ها أنذا أبدأ خطوي ثانية،
لا أخشى أن يسبقني عصر
أو أن يمنعني غيره.
أعلم أن الأفعى
تحفر لي قبراً في السر..
وتنصب أفخاخاً في الفلوات..
وفي الطرقات..
وحيث تكون الخطوات..
يا وطني أحسب أني

آليت على نفسي الحيف ..

وأقسمت، وأقسم

أن لا يعرف درب خطاي الضعف ..

وأن لا يسكن بين ثنايا روحي الخوف

يا وطني: أقسم أن لا أرضى اعنك بديلاً..

أو أن أجد لغيرك في الأزمان

وفي الأوطان خليلاً ومثيلاً..

وسأبقى ألعن تجار الموت..

وحراس المعبد،

والسفلة والأوغاد..

ومن خانوك..

ومن سلبوك..

ومن ذبحوك

ومن قتلوا أطفالك

أو شربوا من دمهم..

أو من تركوك ذبيحاً وذليلاً..

الآن أشهد أن لا زمنا يحملني

إلا زمنك أنت، ولا جرح يعنيني إلا جرحك أنت...

عـدت إلى دمشـق، واسـتقرت بي الحـال في دار النقاهـة، الـتي أعـدت خصيصاً لاستقبال الجرحى في فترات راحة لهم بعد العلاج.. وهناك وجدت الشهيد القائد أبو علي إياد قد امربالتهيئة والترتيبات

اللازمة لسفري إلى الكويت –مكان إقامة عائلتي المؤقت– ورغم أنني لم أكن أفكر في ذلك، محاولاً الاعتذار عن السفر بالإصرار على عودتي لموقعي، إلا أنني جوبهت بإصرار منه على ذهابي إلى هناك ولو بشكل مؤقت، وقال مازحاً: اعتبرها زيارة يا غضيب..

وهي كلمة التحبب التي لا تفارق لسانه وحديثه لأخوانه المقربين، وأبو علـي إياد أسـطورة فلسـطينية.. تفـوق في أهميتهـا وحضـورها النضـالي كـل الأساطير.. قائد شجاع ومقدام، نذر حياته لفلسطين.. ودفع ثمناً مبدئياً كبيراً، لذلك حين انفجرت فيه عبوة أدت إلى إصابات جسيمة في ساقه ووجهه وفقد عينه، ولم تمنعه الإصابة البليغة من أن يأخذ على عاتقه قرار الدفاع عن المقاومة، وحماية مكتسباتها.. فسقط شهيداً لفلسطين والنضال والأمة العربية.. وكان رمزاً للمقاومة الوطنية في التصدي للمهمات الصعبة، وحماية القرار الوطني الفلسطيني المستقل..

عرفته إثر حادثة سخيفة كان فيها حكماً، أتنزه عن ذكرها بتفاصيلها لأنها لا تستحق الذكر

وحين التقيته للمرة الأولى سألني من أين أكون..

فقلت له من قرية حارس، ولم أكن أعلم أنه من قلقيلية..

فبادرني بسؤال آخر، أتعرف الحاجة رسمية على ما أظن..

قلت لا، ولو ذكرت اسمها بالكامل فقد أعرفها..

قال: هي سيدة لها فضل كبير عليّ، وطلب إلي العودة من حيث أتيت، والتفكير جيداً في موضوع الالتحاق بقوات العاصفة، قلت له: لن أعود وقد حسمت أمري منذ أمد، وكنت على اتصال مع الأخ أبو إلياس لزمن كاف، قال: إذن فاذهب في إجازة، وعد بعد أسبوع فهناك من يسأل عنك...

كان أبو علي إياد واسمه الحقيقي (وليد أحمد نمر) من مدينة قلقيلية الباسلة، يفرض حضوره وهيبته في المكان والزمان، حتى أن أولئك الفدائيين الأبطال الذين وضعوا الحياة في مستوى الموت، يرهبونه، ويطيعون أوامره، وقد تساءلت في نفسي كثيراً: لماذا يرهب الرجال الرجال؟ لماذا يخشى الفدائي فدائياً آخر مثله؟ الجميع يخضعون لنفس الخطر وبالقدر ذاته.. والكل يؤدي واجباً وطنياً.. كيف لا يخشى الفدائيون ظلام الليل وخطره ومفاجآته وكمائن العدو، وكثيراً ما يذهب هؤلاء في دورياتهم الانتحارية حفاة.. نعم. حفاة؛ لأن بعضهم كان يخلع نعليه ويلقي بهما بعيداً عند حدود فلسطين، دلالة

على احترامه لقدسية الأرض، ومبالغة في الوازع الديني والأخلاقي الذي يجعله يتحمل دكمات الصخور وحواف الحجارة، وأشواك النباتات والشجيرات المتيبسة.. أجل، قد يتوهم البعض بأنني أبالغ، ولكن علينا أن ننشط الذاكرة فنعود للوراء قليلاً، لأن ذلك كان قد حدث وحدث ما حدث من قبل على غراره، فحين كانت المعيشة ضنكاً في فلسطين، أتذكر أن نساء القري كن يقضين وقتاً طويلاً أمام السراج لخلع بقايا الشوك و (شرانيخ) العيدان من أرجلهن قبل النوم وهن اللواتي كنّ يسرحن لمسافات طويلة، بحثاً عن الماء والحطب وبعض النباتات الصالحة لطعام الإنسان، كالعكوب، والحميضة، واللوف، والزعمطوط والسيبعة، والسعيسعة، والفقع وخلاف ذلك... ومثل نساء القرية نساء أخريات في قراهن وبلداتهن، وإنه لمن النادر جداً في ذلك الزمن أن تجد امرأة تلبس حذاء أو غيره في الوقت الذي كان فيه عامة الرجال يلبسون (القوشوقة) وهي أشبه بالخف ومصنوعة من الكاوتشوك، وأكثر حالات استعمالها من قبل الحراثين والعاملين في زراعة الأرض.

قد تكون أسئلتي التي أشرت لها صحيحة ومنطقية، وقد لا تكون، ولكن هذه التساؤلات ليست بحاجة إلى جهد كبير للتعرف على إجاباتها.. فالشهيد القائد أبو علي إياد لم يكن حالة نضالية فقط، ولكنه كان حالة نضالية إنسانية وأخلاقية، وقد تفوق على كثيرين بما توفر لديه من خواص قلماً تجتمع في شخص ما، فهو معلم كان مخلصاً لوظيفته في المجتمع.. مدركاً

لحيويتها وأهميتها، مجتهداً في تبسيطها وتحويلها إلى ظاهرة اجتماعية، لذلك هو لم يفقد إحساس المسؤولية والأبوية كمرب حتى عندما أسهم في بناء حركة تحرير وطني، وعلى العكس من ذلك، فإنه نقل المدرسة إلى القاعدة والمعسكر، وكان يحلم بنقل المعسكر إلى المدرسة والحارة والبيت لتكتمل المعادلة.

كان أبو علي اياد قاسياً وحازماً وشديداً، ولكنه كان في الجانب الآخر من الصورة ودوداً وعطوفاً ورحيماً، لذلك أقول: إن القائد يلد قائداً بالفعل، وإن القيادة تجمع بين السلوك الفطري والسلوك المكتسب، وكما هو الشعر موهبة تتعاظم بالتجربة والمراس وسعة الاطلاع والمعرفة، فان القيادة هي الأخرى موهبة تتعزز بما يكتسبه المرء من خبرة ودراية ومعرفة وحضور ومشاركة...

وأستطيع القول: إنه لم يكن متناقضاً، ولكنه كان يعطي كل شيء قدره، ثم إنه نظام اجتماعي متنقل، فهو لم يمارس دور الأبوة؛ لأنه يشعر برغبة أو متعة في ذلك، بل هو ملزم لنفسه بمسؤوليات نحو أهالي من يعملون معه بالفعل.. وإذا كانت عصاه تسبق الكلام أحياناً، فإنني لم أسجل خلاف المداعبة موقفاً جدياً امتدت فيه هذه العصا لمن لا يستحق..

وأبو علي إياد كان يستخدم العصا كإحدى وسائله التربوية وأدواته، ولقد تربى على نهجه العديد من الأشبال والفتية الذين أصبحوا قادة أو شهداء أو جرحى، في الوقت الذي كان فيه كثيراً ما يركز على الجوانب الأخرى، والإصلاح نهج اجترحه من خلال النهج الفتحاوي، بمفاهيمه التي كرست أهمية الفرد، ودوره النضالي، ولذلك هي لم تسع لفرض الأفكار والمعتقدات بالقوة، ولم تعمل على توحيد الساحة النضالية بقوة السلاح كما حدث في ثورات أخرى، بل لجأت إلى الديمقراطية، والحوار، والتعددية، غناء للفكرة وإثراء للتجربة.. وعلى درب الفداء استطاعت الحركة أن تحقق نجاحاً من خلال مدارس الإصلاح، وأساليب إعادة حتى بعض من ضلل بهم إلى الصف الوطني، وإعدادهم للقتال، وبعضهم كان قد نفذ عمليات قوية ضد الاحتلال، ومضى شهيداً في سبيل مبادئ الخير والحق التي استأصلت شرور الاحتلال، وأساليبه في إسقاط بعض الشباب ومحاولات جعلهم أعداء لأهاليهم وشعبهم ووطنهم..

أما الأخوة المناضلون القدماء الذين كانوا أكثر الناس قرباً من الشهيد القائد، فإن آراءهم فيه لم تختلف بل هي تكاد تكون متطابقة تماماً..

يقول رشاد الكاسر: "كان العم أبو علي يراعي الظروف الاجتماعية لكل عنصر ويعرف الحالة الاجتماعية له، ويقدم المساعدة المطلوبة مما حدا بالجميع أن يثقوا بأن أهلهم وعائلاتهم ستلقى الرعاية في حالة استشهادهم..

"أبو علي كسر الحواجز والحدود، وأصبح المرور بورقه إجازة تحمل توقيعه، من عاصمة لأخرى.. ويقول مثل الاخ ابو نافع المدني.. عضو اللجنة المركزية لحركة فتح

"أبو علي لم يكن إنساناً عادياً، فلقد أحدث تغييراً في مسيرة الثورة، وحتى في قوانين الدول التي عاش فيها..

ويقول عمر أبو ليلي: "كان أبو علي إياد الثائر القائد، ممارسة ونهجاً طريقاً للثوريين الحقيقيين، ولا تستطيع السطور والكلمات أن تعطيه حقه. وكان أعظم ما فيه إيمانه بحتمية النصر عبر زج الشعب كله، ومشاركة الشعب العربي في حرب التحرير الطويلة الأمد.."

"كان أبو علي اياد بحجم الساحات وآلاف المقاتلين، ولكنه في كل مكان معهم، ليس هناك فواصل وحواجز ولا يحتاج المرء آنذاك إلا بندقية، فهو ينام ويأكل في الفضاء، وحيث يحل يكون وطنه..

ولم يكن أبو علي إياد سياسياً بمعنى ممارسة العمل السياسي ولكنه كان مفكراً ومناضلاً حاول طوال حياته أن يكرس مفاهيم عسكرية للكفاح المسلح وحرب الشعب.. وقبل أن نأتي على جانب من دوره الحيوي في تطبيق منطلقات فتحوية، نسجل جانباً الحقيقة التاريخية لنشأة "قوات العاصفة" الجناح العسكري للحركة، وبنظرة سريعة إلى الوراء نكتشف أن

صراعاً قوياً كان قد صاحب الإرهاصات الأولى لانطلاقة الثورة الفلسطينية عام 1965.. فبعض القيادات التاريخية للحركة كانت معارضة تماماً للتوقيت الذي فرضه الراحل الرمز أبو عمار، وبعض الكوادر التاريخية من الذين عايشوا الأحداث.. وكان لهم اطلاع ومعرفة أكيدة.. أبلغني أن الأخ "أبو عمار" كان قد حضر إلى منزل الأخ أبو إياد (صلاح خلف) رحمه الله، ولم يجده، وكان في ذلك الوقت يعمل مدرساً في مدرسة الدعية بالكويت، قال محدثي وصديقي الشاعر المرحوم أكرم عرفات، وكان جاراً للأخ أبو اياد: خرجت منتصف الليل لأتبين الضجيج القوي الذي أحدثه أبو عمار، وهو يقرع باب منزل أبو إياد، فعندما شاهدني.. قال: يا أكرم، أنت هنا! أين صلاح؟ قلت له: لا أعلم، ولكن أغلب الظن أنه ليس في المنزل، قال وهو في أوج انفعاله وغليانه: "مش مهم" فقط أبلغ" صلاح " أنني حضرت إلى هنا وقل له: كيف، ومتى، وأين "تحت جزمتي!" الثورة حتنطلق.. يعني حتنطلق.. وعندما سألت أكرم عن أبعاد المسألة، وهل يعني هذا الكلام أن الأخ أبو إياد معارض لتوقيت انطلاقة الحركة.. قال أكرم: لا، لا أعتقد ذلك. أبو اياد أكثر حماساً للفكرة، وأغلب الظن أن رسالة أبو عمار تعني في مضمونها الاستعداد، واتخاذ إجراءات وترتيبات معينة..

وقد علمت فيما بعد أن جوهر الخلاف كان التوقيت لانطلاقة تتحقق لها كل أسباب النجاح.. وأن الاستعدادات والتحضيرات التي بدأت منذ عام

1956 ابتداء بغزة ومروراً بالقاهرة أيام رابطة الطلبة الفلسطينية، يجب ألا تذهب هباء.. ولا خلاف على موضوع الانطلاقة عبر ذاته.. فكان هناك من يرى أن حركة فتح ستنتهي وستدمر آمال وأحلام الحرية والعودة والتحرر إذا فشلت الانطلاقة.. وكان هناك من يرى أن ركوب المغامرة، وتحديد موعد قريب للانطلاقة أمر لا بد منه..

وقد تجلت وحدة الرأي والموقف، في إقرار صيغة "العاصفة" كنجاح عسكري لحركة فتح، يأخذ على عاتقه مسؤولية الحدث وتداعياته، فإذا نجحت تستمر الحركة، وتستمر العاصفة كجناح عسكري لها، وإن فشلت تحملت العاصفة عبء خطر المغامرة وحدها..

بقيت في دمشق فترة قصيرة.. وكان علي أن أعرف الأسباب، التي دعت الأخ أبو علي إياد، أن يفكر بإرسالي إلى الكويت، فلم يكن الأمر يتعلق بزيارة الأهل؛ لأن الزيارة ليست أمراً ملحاً ومستعجلاً في حد ذاته.. وكنت أفكر بأنها ستتم بعد عودتي لموقعي النضالي.. وبعد انتهائي من الترتيبات الخاصة بذلك.. لكنه -وكعادته في التعامل معنا- كان قد فكر وقرر، وحين التقيته للمرة الأخيرة في دمشق.. قلت له: أنت هنا المثال والقدوة، وموقعي لن يكون في الخطوط الخلفية، وإلا فكيف تتحمل أعباء يعجز عن حملها الأصحاء، في أرجلهم وأعينهم وأيديهم؟! المسألة مسألة إرادة فقط، فهل تنقصنا الإرادة؟!

قال: الثورة ليست قتالاً وقتالاً فقط.. والنضال أشكال وأوجه متعددة.. وعليك مهام عاجلة أكلفك بها، وأولها استكمال الدراسة.. والتفرغ للعمل في مكتب الحركة في الكويت طيلة فترة الدراسة.. وعندما تصل هناك ستجد الترتيبات قد سبقتك...

ودعته الوداع الأخير، ولم أكن أعلم ذلك.. فظل طوال الوقت منذ استشهاده حاضراً وشاهداً في المشهد النضالي، ذلك أن الشهداء لا يموتون، وأن العبقرية والفلسفة ليست بالأقوال فقط، بل هي بالأفعال أيضاً.. فتلاميذ هذا المربي الكبير، الفذ، يغطون خريطة النضال الوطني، وينهضون بأعباء المسؤوليات الجسام منذ نعومة أظافرهم:

نموت واقفين يا إياد
نموت واقفين يا جواد
نموت واقفين يا رشاد
قد نفقد الهواء والدواء
والدمع والبكاء
لكنها لن تسقط السماء
لن تسقط السماء يا حبيبنا
ونحن زاحفون..

تركت دمشق وبيروت، وقبلها عمان، على مضض، وذهبت إلى الكويت بلا رغبة في أي شيء سوى جانب الاتصال الإنساني مع عائلتي، التي لا تعلم عني شيئاً منذ نهايات عام 1967..

وعند الثانية عشرة والنصف تقريباً في يوم من أيام الصيف الحارة، حطت الطائرة في مطار الكويت الدولي، وما إن لفحت الرياح الحارة وجهي، حتى شعرت بعناق الصحراء الحار، وأنا أحب الصحراء لأسباب مغروسة في وجداني منذ الصغر؛ فالصحراء نبض عربي خالص يتجدد ويتجذر فينا تاريخاً، ووجوداً، ولغة، وكبرياء.. الصحراء، تراثنا وعروبتنا، وكفاح أمتنا وفلسفتها الحضارية التي أضاءت الظلام بنور الرسالة وإرادة الحياة..

لم أكن أعرف شيئاً في هذه البلاد.. ولم أحاول أن أخبر أحداً بحضوري.. وكل الذي أعلمه جيداً أن والدي يعمل في وزارة الأشغال الكويتية، وأن أخي الأكبر، الذي كان يعمل هناك، قد غادر إلى أبو ظبي أملاً في الحصول على عمل أفضل..

ركبت سيارة الأجرة، وطلبت إليه التوجه إلى مكتب منظمة التحرير الفلسطينية.. وكان في منطقة "الشرق" قرب القصر الأميري.. وبالفعل وصلت إلى هناك.. واستقبلني الأخ عثمان أبو حاشية، وكان قائماً بأعمال المدير.. وقال الوقت متأخر الآن، ووزارات الدولة انتهى فيها الدوام، والليلة

ستكون ضيفنا وغداً نجري الاتصالات اللازمة.. وفي الفندق القريب من المكان قضيت ليلة طويلة.. قلّبت فيها كل صفحات الماضي القريب.. وتذكرت فيما تذكرت، اللحظات الأولى التي أفقت فيها بعد غيبوبة امتدت ستة أيام في مستشفى السلط الحكومي.. كان جسدي وما تبقى من ملابسي مليئاً بالدماء الجافة المتيبسة.. وكانت ساقاي مشبوحتين في مؤخرة السرير، وكنت لا أقوى على الحركة تماماً.. وما إن صحوت حتى أقبل علي رفاقي الذين سبقوني في صحوتهم، وتدفق أعداد من الأخوة والأخوات من لجان فتح العاملة في مجال النشاط الاجتماعي.. وبعد ساعات قليلة حضر الرئيس الراحل أبو عمار ومعه صحفيان من جريدة الأهرام يرافقانه في جولته..

واطمأن الرئيس على صحتنا جميعاً.. وحاول أن يثنا جانباً من مشاعره الفياضة.. وقال ممازحاً: (إيه يا خوي انتوا استريحتوا للقعدة وإلا إيه؟ إحنا ورانا شغل، وأنا عايزكم تصحصحوا بسرعة".

ثم وجه الصحفي سؤالاً للأخ أبو عمار عن الكفاح المسلح وطبيعته، فقال الرئيس مبتهجاً: أنت بتسألني ليه؟! " دول هم اللي حيردوا على أسئلتك" وكان يشير لنا مجموعة الجرحى الذين تجمعوا في المكان.. وفي وقت لاحق حضر الأخ أبو علي إياد، وأبو صالح، وآخرون.. وفي تلك الليلة حضر الطبيب المعالج د. أنور حدادين.. ومعه عدد من العاملين والأطباء..

في زيارة تفقدية وأحضر الطبيب المناوب لي قصيدة شعرية كانت السيدة أم كلثوم قد غنتها في تلك الليلة كأحدث عمل فني لها، وكانت القصيدة بعنوان "هذه ليلتي" قرأتها مراراً قبل سماعها، فأيقظت في داخلي ما كان ساكناً وما تركته استثناء، ونتيجة لسوء الفهم الذي ساد آنذاك، فالشعر ليس قولاً وكلاماً فقط.. الشعر ضرورة تفرضها المراحل كلها، والقصيدة نسق ثقافي تعبوي ظهير لبنادق الحرية والعدالة الاجتماعية والاستقلال، وخلاف ذلك تكون في دائرة خطر الانحراف والفوضى.. إذن هو الشعر وكفى به طاقة وقدرة إبداعية تصون المسيرة، وتحفظها من أخطار الاستلاب والمصادرة والتشظي والضياع..

كم سيطول غيابك أيها البعيد
في غربة الزمان والمكان..
وكم ستكون مضيعاً
في وهمك الذي استعذبته
سراباً وضباباً..
انهض الآن إلى ذاتك
وانظر في مرآة جبينك..
تجد العالم من حولك
مسكوناً بالرغبات وبالشهوات..

وتجتمع على أشلائك
كل وحوش الدنيا..
لا زمنا ينبئك بقدر
ينتظرك في الأزمان..
أو وطنا يصعد في ذاتك
حدّ اللذة والفرحة..
أو حتى حدّ المقصلة
الممهورة بالختم الأحمر
والعنوان والخوف يدق الأبواب..
قد السيف قميصك من دبر،
فاستر عورة قلبك بالعطر السري ..
وورق الزيتون الأخضر..
واكتب شعراً.. نثراً.. لغة
واجعل منها غضباً..
مطرا ..
قدراً ..
يخطف وجه البرق القادم،
يمحق أوجاع النسيان..

واحفر بأظافرك الرغبة

والقوة في القول:

الأرض هي القصة والصحوة،

والفكرة والوجدان..

والوطن هو الروعة

واللوعة والحرمان.،

والاثنان هما الراية والعنوان..

حضر والدي في اليوم التالي ومعه عدد كبير من أقاربي المتواجدين في الكويت، وكانت لحظات لا يمكن للكلمات أن تترجم فيها المعاني والمشاعر التي أحاطت بالموقف الكبير.. وإذا شئت أن أحاول ذلك، فإنني سأقول إن الخطأ الفادح الذي وقعت فيه هو أنني تركت جانباً من مشاعري نهباً للوهم الذي عرف طريقة إليها، فتسلل وبقي مسيطراً لفترة كافية، لتحدث ألماً حاداً لأناس اعتقدت بأن حبهم يفرض علي أ لا أحملهم عناء متاعبي وهمومي.. فكانت النتيجة عكس ما رأيت وتوقعت.. حين علمت حجم الذي سببه انقطاعي الطويل في نفوسهم، وأحاسيسهم ومشاعرهم.. وكان الأمر سيكون هيناً ومريحاً لو أني تواصلت حتى بإثبات الوجود فقط..

كانت الأشهر الأولى في الكويت فرصة لي لإعادة ترتيب أوضاعي من جديد، فتوصلت لقناعة مطلقة، بأن الماضي القريب لن يكون مختلفاً اختلافاً

كلياً عن الحاضر والمستقبل، ولكن في هذه الظروف وأمام هذا المنعطف لا بدّ من إعادة ترتيب الأولويات، ولا بد من الإقدام على الحياة، بعزم الإقدام على الشهادة.. والحاضر والمستقبل هو امتداد طبيعي لمرحلة سابقة مرت بكل تفاصيلها.. وكثيراً ما كنت أقول في نفسي: الإنسان مخزون هائل من القوة والطاقة، لو قدر له استغلالها لأوغل في دروب المستحيلات، وفك رموزها، وجعل منها ظهور مغامراته للمجهول .. وعندما تتناهى إلى حدودها الأمنيات، فإن الإجابة كانت لدي تصطدم كثيراً بسؤال آخر متولد عنها.. وكان السؤال المحوري: ترى! لو قدر لكائن ما أن يختار ما مر به من أحداث وتجارب وصعاب، فهل سيختار الطريقة والأسلوب، والمعالجة ذاتها، وكان جوابي: لو قدر لي أن أختار، فسأختار ما فعلته تماماً، وما ارتضيته عن قناعة وقبول، فإنني لا أجد فيه تجاوزاً على ما كان يجب أن يكون، وإن الشيء الذي لا أستطيع نسيانه، أو إغفاله هو أن قوّة إضافية في الأحوال والظروف الاستثنائية تتبدى في حركة الإنسان وسلوكه، فتضاعف قوته التي يستشعرها في ذاته أضعاف أضعاف ما هي عليه.. وهذه القوة الخفية هي الاحتمال الأصح لكون الإنسان مسيّراً ومخيراً في آن واحد، وأن الإنسان الذي هو نفخة من روح الله يستطيع أن يطمئن بأنه لا يتواجد في نظام الوجود بإرادته فقط، وهل لإرادة كائن من كان أن تقرر التواجد من عدمه في الأصل؟! إذن هو ليس وحيداً منفرداً في أي شأن من شؤونه تماماً، كما هو ليس حراً ومطلق الحرية تماماً...

كانت الكويت اختياراً لا إرادياً بالنسبة لي، وكنت أفكر فقط في اتخاذها مرحلة انتقالية، أستطيع بعدها العودة إلى ساحة متقدمة من الساحات في الشام أو عمان أو حتى في لبنان، الذي بدأت قواعد الفدائيين المتحركة نشاطاً مكثفاً في جنوبه، وعلي أن أنجز بعض الأمور المستعجلة، وفي مقدمتها التقدم لامتحان الثانوية العامة؛ إذ إنني كنت قد اضطررت لمغادرة البلد قبل السنة النهائية في المرحلة الثانوية، ولكن- وكما يقال أحياناً- "تجري الرياح بما لا تشتهي السفن"فلقد استشهد الأخ أبو علي إياد رحمه الله وبت اشعر بوصيته

وبقيت أعمل في مكتب الحركة، وعندما استطعت التقدم للامتحان في بلد عربي آخر عن طريق المكاتب الخاصة بذلك، شعرت بارتياح كبير رغم الصعوبات التي لمتمكنني من استكمال الدراسه، لكن ذلك كله لم يقف حائلاً بيني وبين رغبتي في الحصول على الثقافة العامة المطلوبة، إلى أن تتهيأ الظروف المناسبة التي أستطيع من خلالها إنجاز مهمة أصبحت بالنسبة لي وصية أخ، وقائد ومعلم، قضى شهيداً في سبيل ما آمن به.. فكانت القراءة بالنسبة لي روتيناً يومياً، وعملاً لا يوازيه في الأهمية إلا الكتابة، وظلت القناعة مترسخة لدي أن أحد أهم مدخلات الإبداع هي القراءة، وأن الإبداع -في حدّ ذاته- نظام قائم على أساس ذلك، وشأنه شأن الأنظمة الأخرى، فلا

مخرجات بلا مدخلات، ومن يزرع يحصد.. ومن يقرأ يكتب، وتظل المسألة نسبية فيما يتعلق بالخواص..

وفي السنوات الأولى التي سبقت حرب تشرين عام 1973، كانت موهبتي الشعرية أكثر تجلياً وحضوراً من قبل، وبدأت التفاعل مع النشاطات والفعاليات الثقافية.. وكانت أول مشاركة لي في مواجهة الجمهور أثناء احتفالات الانطلاقة المجيدة، فقد دعيت لهذه الاحتفالات كمقاتل وجريح لا كمثقف وشاعر، ويومها كان الاحتفال الأول في مدرسة الرازي أو الدعية لا أذكر تماماً، وقد خيرني القائمون على الحفل بإلقاء كلمة أو قصيدة أو أن أجمع بينهما.. ورغم أنها المرة الأولى التي أواجه فيها جمهوراً محتشداً بالآلاف.. إلا أنني ظللت متماسكاً، ولم يتسرب القلق إلى نفسي إلى أن حدث ما لم يكن في الحسبان، عندما صعد إلى المنصة على مسرح المدرسة أحد الاخوه آنذاك لإلقاء كلمته، وعندها بدا، متردداً، ترتجف يداه فاقداً السيطرة مماجعل المتكلم الذي يليه في برنامج الاحتفال، يصعد إلى المنصة، ويأخذه جانباً ويقدم له كوباً من الماء، وليتقدم عريف الحفل باعتذاره للجمهور، مشيرا إلى مرض الزميل وما أصابه من إرهاق سابق..

كان المشهد بالنسبة لي مؤثراً جداً.. حتى أنه استحثني للوقوف وقفة مغايرة أمام الجمهور، وقلت في نفسي: إن رهبة لقاء الجمهور تعود لأسباب كثيرة أهمها الإحساس بالقدرة على مواجهة الجمهور، وتذكرت الشاعر العربي

الذي وقف في الناس خطيباً، ولكنه فوجئ بعقدة لسانه، فاضطر إلى ارتجال بيت من الشعر:

وإن لم أكن فيكم خطيباً فإنني بسيفي إذا جد الوغي لخطيب

لذلك صعدت درجات المسرح نحو المنصة بكل ثقة، وحاولت أن اضع اللاقط "الميكرفون" موضعاً ملائماً.. ولم أكن أحمل ورقة ولا خطاباً مكتوباً.. وأذكر أنني استأذنت الحضور بإلقاء قصيدتين: الأولى تشكل الحالة الشعرية الجدية لي في بداياتها وهي بعنوان "من أنا" ومطلعها:

شأني كشأن الأخرين رجالا ما كنت نجماً لا يطال منالاً
شأني أنا أني نبيُّ قناعتي من قال إني كافر من قالا
شأني على كفي سفحت مخاوفي وحملت أحلامي إليك قتالا

وكانت القصيدة الثانية بعنوان "القمة" ومطلعها:

يذوب الثلج في قمم الرواسي وتشرق شمسنا رغم المآسي

وكانت القصيدتان اللتان فقدتا مع ما فقدته من أوراق ووثائق في الاجتياح الأمريكي للكويت تشكلان في مضمونهما حالة من التحدي والإصرار على التواصل، والنهوض بعد كل ما اتسمت به المرحله من خوف

وقلق وتردد.. وقد لاقتا الاهتمام الذي لم أتوقعه مطلقاً، حتى أن الأخ أبو الأديب "سليم الزعنون" طلب إلي المشاركة في الاحتفالات الحركية باستمرار،

وقال: إن نَفَس المتنبي يظهر جلياً في هذه القصائد...

ومنذ ذلك الوقت فأنني لا أبالغ إذا ما قلت إنني لم أنقطع عن المشاركة في الاحتفالات والمهرجانات، إلا ما ندر طوال السنوات التالية، ولقد أبرزت الصحف المحلية قصائدي على صفحاتها في اليوم التالي، ومنذ ذلك الوقت بدأت الاهتمام بنشر قصائدي في الصفحات الأدبية، أو في المجلات التي تعطي الشعر والأدب عموماً اهتماماً خاصاً. ، وكانت استجابة الصحف والمجلات للنشر مرضية بالنسبة لي؛ فالوطن الكويتية، ومجلة النهضة –على سبيل المثال– كانتا من أكثر المطبوعات انتشاراً في الكويت والخليج وقد شهدتا نشر باكورة قصائدي ومقالاتي الأدبية.

ويوماً بعد يوم أصبح لي بفعل التراكم الإبداعي حضور مميز بين المثقفين والمبدعين، وأصبح لي نسيج من العلاقات الحميمة، مع الكتاب والصحفيين في هذا البلد الذي تتجمع فيه طاقات محلية وأخرى عربية، وفي مساحة ضيقة تسهل التواصل اليومي والتفاعل المريح، وقد تعززت هذه العلاقات بعد النقلة النوعية التي حدثت بتعرفي على الأخ علي ناصر ياسين– رحمه الله–، وكان يعمل في إذاعة الكويت وجانب تخصصه الوظيفي، هو كتابة التعليق

السياسي. كان علي ناصر ياسين من قدامى الأخوة الحركيين في الكويت، وحين أسندت له مهمته كمدير لمكتب منظمة التحرير الفلسطينية في الكويت طلب إلي العمل معه، وألح علي في ذلك، فتركت موقعي في مكتب الحركة، وخيرني في العمل إما في مجال الإعلام أو في مجال التعليم فاخترت التعليم اولا ثم عملت في المجالين لاحقا

والحقيقة أن تركيزي الذهني لم يكن مكترثاً بالوضع والمسمى الوظيفي، بقدر ما كان منصباً في اتجاه ما حددته لنفسي من خطى، وما ألزمتها به من أهداف.. وكنت أؤمن- ولم أزل- أن الإنسان هو الذي ينهض بالموقع، وأن الموقع مهما بلغت أهميته فإنه يهبط بهبوط صاحبه، وعلى هذه السنة التي ارتضيتها لنفسي قررت ألا أهتم بالمواقع التي تأتي بقرار؛ لأنها لا تساوي شيئاً أمام الموقع الذي يأتي بالاختيار، فسارعت في الانضمام للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، وفزت في عضوية المؤتمر العام الذي عقد في تونس عام 1978، وكثفت مشاركتي في نشاطات الاتحاد وأمسياته، ونأيت بجهودي عن النشاط التنظيمي الحركي لأسباب تتعلق بوجهة نظر خاصة كانت كثيراً ما تصطدم مع جمود الأطر التنظيمية.

كانت الكويت الساحة الخليجية الوحيدة التي يمارس فيها الفلسطينيون نشاطهم السياسي والثقافي والاجتماعي بحرية وقوّة، لكن الجهات المعنية في الدولة لم تكن بعيدة عما يحدث، فكانت تهتم وتراقب كل النشاطات

والفعاليات للجالية الفلسطينية، وكان الفلسطينيون قد تزايد عددهم بعد أحداث أيلول عام 1970، اذ سهلت السلطات قدومهم تماماً كما حدث ذلك في أعقاب النكسة عام 1967، لكن عدد أبناء الجالية الذي تجاوز الأربعمائة ألف نسمة ونشاطها المتزايد أصبح مصدر قلق للكويتيين الذين باتوا يستشعرون خطراً وهمياً، زيّنه بعض أولئك الذين طمعوا في ثروة البلد، والكسب المتنامي في تشغيل العمالة التي تُدر عليهم تحويلات كبيرة بالعملات الصعبة، أو من كانوا يرسمون سياسات استراتيجية لمستقبل المنطقة، في إطار الهجمة الاستعمارية، ونهج العولمة بمفاهيم القوّة والسطوة والنفوذ.. ونتيجة للاستشارات التي أبداها خبراء مختصون يمثلون مصالح بلدانهم وسياساتهم قبل كل شيء، عملت الأطر المعنية هناك على إعادة النظر في معظم القوانين التي تمكنها من وضع حد لتنامي أعداد الجالية الفلسطينية بشكل خاص، وقطاع الوافدين العرب بشكل عام، فكان قانون الايجارات بصيغة الزيادة التراكمية.. وقانون الإقامة باشتراطاته العديدة، وقانون العمل والخدمة، والكفالات كلها قوانين وإجراءات أدت إلى مزيد من الأعباء والمعاناة، وترتب عليها كثيرمن الآثار والظواهر، غير أن الفلسطينيين في تجمعهم المنظم في الكويت، لم تكن لهم الاهتمامات التي شغلت حيزاً من تفكير من استولت عليهم الظنون بهواجسها، فكان جل اهتمامهم منصباً-في الأساس- على كسب قوتهم، وقوت أسرهم التي ساوى الاحتلال والعدوان بين أحوالها ومستوياتها، فأصبحوا جميعاً أغنياء وفقراء في ظروف العوز والفاقة بعد أن دمرت

الطبقات، وشردت العائلات، مرة في ظروف النكبة، ومرة أخرى في ظروف النكسة، ومرات عديدة في أحوال المصادرة والاقتلاع والنهب والتهويد...

وغير ذلك، فإن اهتمامات الجالية الفلسطينية الأخرى بشكل عام، تمثلت في التفاعل الذي أبداه أبناؤها مع القضايا الوطنية والقومية، وهو ما يؤكد الحرص على رفض كل ما لاكته الألسن وتداولته الجهات المعادية من أفكار التوطين والتجنيس والأوطان البديلة..

وكان الوعي والفهم الذي أحاط بموقف أبناء الجالية ونشاطهم ونهجهم، قد نجم عنه ثقافة جزئية متميزة في إطار الثقافة الكلية للمجتمع الخليجي، لذلك كانت المشاركة المتبادلة في النشاط العام تعكس طبيعة الثقافة هناك كحاضنة للهم الخاص، والعام، وظهرت النتائج واضحة عندما أصاب الساحة ما أصابها من وهن الخلاف، والانقسام، والتفكك، وإن ذلك لم ينعكس بآثاره السلبية المدمرة، في وسط أظهر تماسكاً وتحدياً لكل الظواهر الانشقاقية والمرضية.. فجبهة الرفض، وبريق الشعارات، التي استغلها أصحابها في التمويه والإبهام، وحركة التصحيح، والمنظمات والأطر المعادية، كلها جوبهت بسلاح الوعي، إرادة قوية من التراص الفكري والعقلي والوجداني.. حالة انسجام ذاتي وتوازن في الأداء والفعل وردات الفعل.. منطق يرقى إلى مستوى النبوغ العالي، والذكاء الجماعي، الذي جعل جبهة العقيدة تصعيداً

لمفاهيم تحولت إلى نظرية فلسفية بسيطة: الوطن يقبل القسمة على الكل، ولكنها قسمة التنافس الشريف، والاجتهاد في سبيل حريته واستقلاله.

وعلى هذه المنطلقات أوغلت الذات لفلسطينية هناك في إرهاصات التحرر من "الأنا" والنرجسية العمياء.. وحب الاستئثار والاستحواذ والظهور، وأصبحت البطولة شأناً عاماً، يجعل صناعها يتسابقون في صياغة مشروعها النضالي التعبوي، وينهضون بعبء المرحلة كلها كأنهم النجوم، أو الشموس القادرة على إبادة ظلام الغدر والتخاذل والانهزام..

صعدت إلى الطابق الأول من المقر الخاص لحركة فتح في الكويت، وكان الأخ أبو الأديب معتمد الحركة في الكويت والخليج قد طلب إلي الحضور للقائه في أمر مهم.. وفي الطريق إليه وقبل الموعد بدقائق معدودة، التقيت الأخ عبد العزيز السيد مسؤول الإعلام آنذاك، الذي طلب إلي العودة لموقعي في الإطار التنظيمي، وعرض علي موقعاً متقدماً في إحدى المناطق التنظيمية، لكنني اعتذرت له، وأخبرته أن العمل التنظيمي الحالي ليس مهنتي، ولا يروق لي المشاركة فيه، وكان آخرون من قبله قد عرضوا عليّ ما يشبه ذلك، ولكن الإجابة كانت واحدة بالنسبة لي، رغم ما للمناطق الحركية التنظيمية من نشاط متميز، ومساهمات جادة في رفد ساحات القتال بالأموال والرجال والتجهيزات.. فالمسألة بالنسبة لي أصبحت مسألة قناعات ومفاهيم يصعب فرضها على أطر مثابرة، لها وتيرة محددة ونمط خاص في مساقه ودورة وظيفته،

فالتنظيم في المفهوم العام لدي ليس ماكنة للتفريغ والتكاثر، ولا فراغات يتم ملؤها واحتواؤها بالقرارات؛ التنظيم قوّة طليعية مهمتها الأولى بناء الكادر القادر على إحداث التفاعل المطلوب، لاستبدال مفاهيم بأخرى، ولإنجاز الهدف بانتصار الفكرة، وإحداث التغيير السريع الذي يوفر الدماء، والخسائر المادية الجسيمة، وعليه، فالجانب الأهم من مهام التنظيم تنفيذ البرامج التي تحقق الاستقطاب الداخلي والخارجي، وعرض أسلحة القتال الأخرى خارج دائرة القتال الفعلي، فالكلمة والنص.. والقصة والصورة، والقصيدة، والغناء، والمسرح والسينما.. الخ كلها أسلحة ولها مفعول السلاح الحقيقي، لأن الفكرة الناصعة تقتل فكرة أو أفكاراً سوداء، والصورة الصحيحة تمحو صورة مزيفة، والقصيدة العصماء تمحق قصيدة خرقاء، وفي المحصلة الكلية: أليس الصراع القائم- فعلاً - هو صراع وجود لا صراع حدود؟!

قال صاحبي الذي التقيته صدفة في مكتب المعتمد: "المسافة بينك وبين أحمد دحبور تضيق" قلت له: أشكر لك ما ترى، ولكن ليس بيني وبين دحبور سباق، وأنا لا أسابق أحداً، ولا حتى أنافس أحداً، الشعر بالنسبة لي وسيلة لا غاية ودحبور لا يقبل ذلك، هو صاحب تجربة مختلفة، وأنا قارئ لشعره ومهتم بقصائده وتجربته الشعرية، قال: كلاكما صديقان لي، وأنا مطلع على البدايات الأولى لكما، ومثلما قلت له أقول لك: إذا بدأ الشاعر فيجب ألا ينتهي.. إن مجرد الإحساس بالرضى خطر يتهدد التجربة كلها..

كان أحمد فؤاد الغول رحمه الله من أوائل الكتاب الذين عرفتهم في الكويت، وكان له رأي نقدي أولي في النصوص الشعرية، وكثيراً ما كان يعبر عنه شفاهة في لقاءاتنا القليلة التي حدثت قبل وفاته رحمه الله، وشأنه في ذلك شأن صديقي الأستاذ رفيق عثمان عضو اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، الذي كان يردع أخطائي النحوية حتى أصبحت بالمراس مختصراً لها، وحريصاً على تلافيها قدر المستطاع.

قال أبو الأديب موجهاً حديثه للدكتور أحمد: فما رأيك بقصائده إذن؟..

قال: هو شاعر موهوب، ولقصائده وقعها الخاص، وهو يعلم ما طلبته منه تحديداً، وأتمنى أن يحققه بالفعل..

وعندما خلا المكان من زواره ومراجعيه، قال أبو الأديب: فما أخبار اتحاد الكتاب؟ نحن على موعد مع الانتخابات.. ووددت أن أتبين الوضع الحركي في الاتحاد.. قلت :(رغم معرفتي بتفاصيل أوضاع الحركة: وآراء الأعضاء جميعاً من خلال معايشتي اليومية لهم) لا أستحضر جواباً محدداً لدي، ولكن-بعد اسبوع واحد- سيتكون لدي رأي ما أعرضه عليك.

قال: حسناً. أنا لم أوجه دعوة للمكتب الحركي، ولم أسأل أحداً من قبل..

شعرت بأنه يضع ثقته بي، ويكون على رأيي موقفاً عاماً، لذلك لم أتسرع في الإجابة؛ لأنني أعلم مدى حرص فتح على استمرار دورها القيادي في المنظمات الشعبية عموماً.. ومنذ ذلك الوقت بدأت علاقتي بالكتاب والاتحاد تأخذ منحى آخر، وأصبحت المسؤولية تتعدى دوري عضواً في المكتب الحركي للاتحاد.. وعندما تيقنت تماماً بأن مكانة فتح وحضورها في الاتحاد تمكنها من طرح برنامج الثقة دون تردد، طلبت تفعيل المكتب الحركي، وتفعيل الهيئة الإدارية توطئة لعقد المؤتمر، وانتخاب هيئة إدارية، وأعضاء مؤتمر عام..

كان الإقبال على نشاطات فرع الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ضعيفاً في البداية، الأمر الذي جعل أحد زملائنا وهو د. رجا سمرين، ينوّه لذلك في معرض تقديمه إحدى أمسيات الشعر مردداً قول الشاعر:

إن الكرام قليل...

وفي اليوم التالي كان تعليقا من تعليق الزملاء في الصحف المعضلة ليست في الكلام.. وإنما هي في الشعراء، وطبيعة الشعر وهذاالكلام لم يكن صحيحا ولكن الصحيح هو ان أي نشاط تاسيسي يحتاج لوقت تتعرف عليه الساحات وتجربة الاتحاد كانت في بداياتها

.. وخلاف ذلك فإن الساحة الثقافية لا تخلو تماماً من المؤامرات، والدسائس، والحساسيات، والأنانيات، التي تحاول أن تصدر نفسها بالإيقاع بين المبدعين والمثقفين، فالنقص أو الشعور به يقود أصحابه للكفر أحياناً، ورغم حرصي على عدم الانجرار لما كانت تتناقله النفوس ، شعرت أنها لم تكن في الحرص ذاته، وقد اندفع البعض بغرور الذات المثقفة التي كثيراً ما تحاول أن تظهر اعتدادها باستباحة شؤون الآخرين والمساس بحريتهم،لذلك رايت ان اتعارض مع من يتعرض في مقالاته لبعض المواقف الخاصة ،والتي والتي افترض لها تاويلا مغايرا وكننت قد انتقلت من الكتابه والنشر الي جريدة الرأي العام ومجلة النهضة عوضا عن الوطن ، وقصائدي كانت تنشر على الصفحة الأخيرة فيها.. ومثلما كانت علاقتي بمحمد مساعد الصالح رئيس تحرير الوطن، ومن بعده جاسم المطوع، كانت علاقتي بالمساعيد الأب عبد العزيز والابن يوسف.. وكنا في تداول مستمر في الشؤون السياسية وخاصة ما يتعلق منها بالقضية الفلسطينية.. وقد حملت مع الأخ والصديق د.حسين أبو شنب الذي عين مسؤولاً لإعلام فتح في الكويت، مسؤولية النهوض بالوضع الإعلامي والثقافي المتعلق بالشأن الفلسطيني، هو في جانب موقعه الوظيفي، وأنا من خلال موقعي كأمين للسر في اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينين، خاصة خلال فترة بوادر الانشقاق ومظاهره التي كان اتحاد الكتاب أحد مواقع المنازلة المبكرة فيها.

ظل الوضع الثقافي متردياً على صعيد النشاط الجماعي كالندوات والأمسيات والمهرجانات، ولكن الهيئة الإدارية الجديدة للاتحاد كانت قد أخذت على عاتقها قراراً بتفعيل هذه النشاطات، سعياً وراء إحداث النقلة النوعية المطلوبة، وهي إيجاد قاعدة جماهيرية مشاركة ومتفاعلة، وفجأة اكتشفت بأنني تجاوزت خطوطي الحمراء.. وأن الوقت الذي مرّ سريعاً كان كافياً لإنهاء مهمتي الأهم.. التي كانت سبب تواجدي في الكويت، إذ سدت السبل أمامي، ولم يعد بمقدوري حتى مجرد الانتساب للجامعة، فقررت السفر إلى يوغسلافيا أو تشيكوسلوفاكيا كي أتمكن من الالتحاق بأحدى الجامعات، وقد حصلت على إجازة مفتوحة، وسافرت إلى بلغراد، وهناك علمت بصعوبة اللغة، وبأعداد السنوات الطويلة التي يقضيها الطلاب العرب هناك قبل إنهاء برامجهم الدراسية، فنصحني أحد الأصدقاء الحركيين بالذهاب إلى تشيكوسلوفاكيا، بل وزودني بتوصيات للأخوة في التنظيم هناك.

لم يكن في براغ مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية، وكان فرع الاتحاد العام لطلبة فلسطين يقوم بمساعدة الطلبة وحل مشكلاتهم، وله بعض الاتصالات الرسمية والشعبية، ولكن الساحة الطلابية في تشيكوسلوفاكيا- عموماً- كانت ساحة منقسمة على نفسها، ومنذ اللحظة الأولى استشعرت بجانب الهيمنة الذي تمارسه مجموعة من الطلاب الحزبيين على الوافدين الجدد من طلبة العلم، وعرفت أن أساليب هؤلاء تتراوح بين الترغيب والترهيب،

حتى أن بعض الطلاب الذين خشوا العودة دون الحصول على مقاعدهم باتوا مهتمين بمسايرة هؤلاء على حساب مبادئهم ومعتقداتهم.

كانت قهوة "كفارنا سفارين" ملتقى الطلبة العرب في وسط العاصمة براغ.. وكنت أذهب إلى هناك لألتقي أحد الأخوة الحركيين المسؤولين هناك.. وفي أحد اللقاءات لاحظت التأزم الذي ظهر على وجوه بعض أعضاء المجموعة الحزبية.. التي لم تسترح لما قلته عن الحركة والكفاح المسلح، وأفكار فتح ومنطلقاتها، وما كان للحديث من أثر في نفوس الطلاب الآخرين بدليل تفاعلهم في الحوار، والاستفسار والتوقف عند كل جملة أو فكرة في الموضوع.

قال ميشيل وهو مسؤول تنظيم حركة فتح هناك

: ماذا فعلت بحق السماء؟

قلت: لا شيء. سألني الحضور فأجبت، والحديث يجر الحديث..

قال: هذه شراك نصبها الماكرون لك.. والحديث لا يدور في المقاهي المكتظة.. فالعيون والآذان مهمتها استدراجك للفخ المنصوب..

قلت: وكيف يكون ذلك؟! إن كل ما تناولته مجرد حديث عام، ويجري على ألسنة الناس كل يوم..

قال: هذه ساحة مغلقة على نفسها، ومعظم هؤلاء لهم ارتباطاتهم، والآخرون يدورون في فلك ولاءاتهم بلا إرادة.

قلت: إذن جاء الحديث في وقته نظراً لحاجة هؤلاء إلى معرفة الحقيقة بدلاً من الدوران في أوحال المأزق الذي يعيشونه.

قال: ولكنك تمكنهم بذلك من الإساءة إليك، وقد يعملون على إفشال مهمتك الأساسية، وهي الحصول على المقعد الدراسي في الجامعة..

وقد أخبرني ميشيل في سياق حوارنا أن أحد الحضور المعنيين باهتمام لما أقول.. قد أطلق إشاعة منذ اليوم الأول لحضوري واصفاً إياي بأنني أحد أعضاء تنظيم حركة فتح (الرجعي في الخليج) وما إن وصلنا إلى (ستراهوف) مقر إقامة ميشيل في سكن الطلاب الخاص بكلية الهندسة حتى تجمعت أعداد كبيرة من الطلبة الفلسطينيين هناك، ومن خلال الحوار الذي دار طوال الليل قدرت أن الساحة الطلابية- بشكل عام- منشقة على نفسها، دون إعلان، وأن حجم الكادر الفتحاوي أكثر فعالية من الطرف الآخر الذي يصنف نفسه يساراً، إذ لا سطوة له إلا على أولئك الطلاب القادمين، وهم بامس الحاجة للمساعدة في ترتيب أوضاعهم، وإن هؤلاء سرعان ما يكتشفون في السنوت التالية للدراسة مأزقهم، وسرعان ما يتحولون ويتحررون

من الشراك التي نصبت لهم، فقد أصبحوا عارفين ببواطن الأمور، وقادرين على درء الأخطار التي قد تتهدد استمرارهم.

وفي براغ بقيت وقتاً طويلاً أتنقل بين (ستراهوف) و(الفيترنيك) وتعرفت هناك على الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري، وكان يعيش نفياً اختيارياً هناك، وعرضت عليه بعض قصائدي التي سر بها وشجعني على الاستمرار، وطلب إلي قراءة الشعر وحفظه حتى يتدفق بغزارة النهر الغني بموارده.

بقيت في براغ فترة طويلة، وظل الجدل دائراً طيلة فترة وجودي، وكان من الأسماء التي ترددت أمامي د. معين القدومي (ابو العون)، وكلما سيطرت على محاور الحوار ومجرياته في براغ ينهض لي أحدهم قائلاً: سنحضر لك أبو العون.. أبو العون هو الوحيد القادر على مناظرتك، وهو الوحيد الذي سينفد أقوالك، ويفحم أفكارك.

ولأن ظروف " أبو العون" لم تكن تسمح له بالحضور إلى براغ، فقد شعر هؤلاء بإحباط شديد انعكس على تصرفاتهم وسلوكهم، أما أنا فإنني لم أعتقد بمسألة الظرف، بل إنني أعتقد تماماً بأن" أبو العون" كان قد اختصر الأمر لأسباب تتعلق بصداقتنا أولاً، وبالصداقة الحميمة التي كانت تربطني بشقيقه المرحوم عوني القدومي الذي كان كادراً قيادياً في تنظيم الحركة في الكويت.

كان أحدهم يعول على حضور أبو العون، وهو لا يعرف العلاقة بيننا. وقد حاولت جاهداً تجنب الحديث معه تماماً في ذلك اليوم، إلى أن استفزني في جمل من الكلمات التي لم أكن أتوقعها تماماً حين قال:

ولماذا أنت صامت إلى هذا الحدّ، هل انتهى الكلام لديك؟.

قلت: أجل لم يعد لدي ما يقال.. ودار بيننا الحوار التالي:

- إذن أنت قد أفلست أو مفلس أساساً..

- بل أعتقد أن الصمت أبلغ من الكلام، وحين يصبح الحوار قتالاً فلا فائدة منه..

- أنت تجيد القتال فعلاً، ولكن ليس من أجل فلسطين.

- ومن أجل من إذن؟..

- أنت تجيد القتال لأنك مأجور رجعي، تعمل وأمثالك، حتى يصبح خالد الحسن، وأبو عمار، وأبو جهاد وغيرهم زعماء..

- إذن، أنت عقيم الفكرة وضعيف النظر، ولا يليق بي أن أكلمك، بل يجب أن تأخذ صفعة لتتعلم أدب الحوار..

، وبقيت واقفاً أراقب الذهول في المكان كله حتى انصرف كل واحد إلى شأنه، وتمتم بكلمات قالها وهو يهم بالانصراف: سنلتقي ثانية..

تركت المكان بلا رجعة.. وأيقنت أن بقائي في هذه البلاد لن يستمر طويلاً.. وركبت "المترو"، إلى "ستراهوف" وحزمت حقائبي، وأعددت نفسي للسفر، وعرجت على ميشيل في سكنه، وشرحت له الموقف بالتفصيل، فوجدته على خلاف ما ظننت؛ متفهماً لذلك، وقال: هو يستحق أكثر من ذلك، وخيراً فعلت، خاصة وأنني منذ أمس أحاول الاتصال بك دون جدوى، فلقد أخبرني كميل رئيس الاتحاد خبراً سيئاً يتعلق برفض الجامعة لطلبك.. بل إنك مطلوب لمقابلة المسؤول السياسي في الجامعة ويدعى "مينارك".

فهمت من حديث ميشيل أن توقعاته قد حدثت، وأن التقارير التي رفعت قد وصلت، وأن العقاب الذي يستحقه كان قد حدث قبل معرفتي بما فعل..

وذهبت في اليوم التالي برفقة "كميل" رئيس الاتحاد إلى الجامعة، وقابلنا السيد "مينارك" الذي أبلغني برفض شديد لطلبي، وبنصيحة لي أن أغادر البلاد على عجل..

كان كميل يترجم ما يقول، فطلبت إليه أن يقول له جملة واحدة: لست آسفاً على رفضكم طلبي للدراسة.. أما مغادرة المكان فشأن ليس من اختصاصك على ما أظن.. وإذا لم تطلب ذلك جهة الاختصاص، فسأبقى وأرحل وقت ما أشاء..

وهكذا وجدت نفسي ملاحقاً في أمنيتي الثانية، التي هي أعز ما تكون لدي بعد أن دفعت ثمناً باهظاً، وفشلت في تحقيق الأمنية الأولى المتمثلة في العودة إلى قريتي ووطني.

وجدت نفسي أدفع الثمن الذي دفعته في الوطن؛ لأن الأفكار التي تسكن أعماقي كرسوخ الجبال تتلخص في كلمات معدودة، وهي: أن تفقد كل شيء خير من أن تفقد مقداراً واحداً من الكرامة..

ويشعل صوت البحر ظنوني..
تعانقني رائحة الصحراء..
كأني أمتشق حساماً،
أو أصعد ظهر جواد تسبق قدماه البرق..
فأين تطير..
أين تطير..
لا تهرب من وحدتك إلى سفرك..

واقعد عن وهمك أين تكون وكيف تكون

واضرب بعصاك الماء..

وقوفاً.. وخشوعاً.. وسجوداً في حاضرة الأزمان،

ستملأ روحك أنوار البهجة..

أو يشطرك الماء..

فتصبح بحراً تملؤه الأمطار

وتسكنه الأقدار..

بقيت مغموراً بالرمل في حفرة على شاطئ البحر، جعلت منها قبراً لأوجاع روحي التي جعلت جسدي منهكاً كل الوقت..

أجل.. أن تفقد كل شيء خير من أن تفقد مقدار ذرة واحدة من كرامتك.. التي هي رافعة وجودك وإنسانيتك.. ووهج ضميرك الممهور بدماء انتسابك لأشرف الأوطان وأقدسها. ومثلما صفعت الظلام.. عليك أن تصفع عمى الألوان.. وصدأ الأذهان، ورائحة الذل.. ولكن، حذار، حذار من السير على صدرك عارياً!

حملت أوراقي، وأجنحتي من جديد.. وطرت في العواصف والرياح، وشعرت بأنني كمن يعود في النهر عكس مجراه من مصبه إلى منبعه..

ولكن لماذا تشاكسني الحياة..

لماذا تقودني الأحوال والظروف،
ولماذا ترتسم ضلوعي
في صحراء القلب
ويمحو رمل الصحراء خطاي..
من قال بأن الزمن تقادم
حتى اهترأت قدماه..
ومن قال بأن الأرض انغصت..
أو شرقت بالماء..
سأغرس أذني في بطن الصحراء..
وعلى خاصرة القمر
أدون لي وشماً أو ذكرى
تحملني..
أو ينبئني قلبي
أنك قادمة في الأوزان وفي الألحان..

عدت إلى الكويت أحمل عبء الفشل كله وخيبة الأمل، ومرارة الشعور، نحو نماذج من الناس جعلت من فلسطين مجرد سلعة وتجارة ووسيلة للتكسّب الرخيص.. وما كنت أدري أن بين صدورهم قلوباً مريضة، يملؤها الغل والحقد.. وما كنت أعلم أن مثل هؤلاء تستوطن في أذهانهم ضروب الخوف، والذل والمسكنة، لدرجة أنهم ينحدرون إلى الدرك الأسفل.. فيحاربون أبناء

جلدتهم حتى في سبيل الدراسة والتحصيل العلمي.. وتذكرت ما قاله الكاتب الليبي الشهيد الدكتور مسعود بويصير في مقدمة كتابه: وإن مثل هؤلاء، لا ينتسبون للوطن حتى بشهادة الولادة؛ لأن مكونات تراب هذا الوطن بقدسيته لا يمكن أن تكون قد جرت في عروق آبائهم من قبل.. وإن كان خلاف ذلك بالفعل فلا أكون مخطئاً في إصراري على القول: إن الخطأ قد يكون مرده لكون التركيب الفسيولوجي لهؤلاء قد اختل لسبب يصعب تفسيره العلمي، ويظل القانون الأخلاقي في الموروث، يحصن الذات الفلسطينية، ويمنعها من الانزلاق المهين، في مخاطر الزندقة والانحراف الخؤون، وحين يحدث ذلك فإن انفصاماً قوياً يكون قد أدى بعوامله وأسبابه إلى سقوط رهيب، تسقط معه أشياء كثيرة، وفي مقدمتها شهادة الزيف التي تحاول أن تحمل الوطن عار السقوط وتداعياته.. ويسقط هؤلاء ويظل الوطن سليماً معافى من الرجس والفجور في أبشع صورهما.

بقيت فترة طويلة في الكويت أقلب أفكاري وأوراقي، وأحاول أن أنتقل في ذاكرتي بين الحضور والغياب، بين السؤال والجواب، فتوصلت بعد طول مشقة وعناء إلى ما أحدث لي ذلك التوازن المطلوب، بعد أن أصاب نفسي ما أصابها من خلل التوازن.. فقد ضخمت المشاعر والأحاسيس عندي أشياء ما كان لها أن تتضخم، وكانت قد استهانت بأشياء ما كان يجب أن يستهان بها..

فالدراسة أمر مهم وحيوي إن تهيأت له الظروف المناسبة، وإلا فإن الثقافة العامة هي البديل العملي الميسر الذي لاغنى عنه حتى للدارسين، وغير الدارسين، وقلت: عليك أن تبدأ بالممكن، وأن تخرج من المستحيل، ولفترة غير طويلة من القراءة والاطلاع، وجدت نفسي معبأ بالكتابة في اتجاهات عديدة أهمها الشعر، الذي كان ولا يزال يشعرني بأنه لا يقبل منافساً آخر، فكتبت المقال السياسي والأدبي، وكتبت قصائد طويلة وقصيرة.. ووجدت نفسي مشدوداً للكتابة المسرحية، وحاولت من خلال العلاقات القوية مع الزملاء والأصدقاء من رؤساء ومدراء تحرير الصحف، والمجلات الكويتية، أن تأخذ كتاباتي طابع الشمول والتنوع في النشر.. فلم أستقر في جريدة واحدة، بل تنقلت في الكتابة بين الصحف الأربع: الوطن والرأي العام والقبس والأنباء، والنهضه مجلة النهضه وكنت على علاقة متميزه مع مدير تحريرها الأستاذ عبد الله الشيتي، ومن بعده ا الأستاذ محمد يونس رحمهما الله، ومع مجلة اليقظة ومدير تحريرها المرحوم الأستاذ سهيل الشنطي..

بقيت في الرأي العام فترة طويلة، ونشرت في القبس العديد من قصائدي ومقالاتي، وكنت على علاقة جيدة مع رئيس تحريرها الأخ محمد الصقروكانت تربطني بالمرحوم ناجي العلي رسام الكاريكاتير الشهيد الذي كان يعمل في القبس علاقة متميزة، وكان ناجي- رحمه الله-في تلك الفترة قد شغل العالم

كله برسوماته القوية المعبرة، وكان موضع الجدل الدائم في الساحة الكويتية بشكل خاص..

وفي لقاء لنا معه في مكتب رئيس التحرير الأستاذ محمد الصقر، كنت وصديقي الدكتور حسين أبو شنب والأخ حافظ البرغوثي، وآخرين من أسرة تحرير القبس.. قال ناجي: أنا لست سياسيا، ولست كاتباً، ولا أستطيع فلسفة الأمور.. أنا أرسم ما أقتنع به.. وأنا فلسطيني حتى النخاع.. ويكفيني شرفاً أنني أنتسب لتلك الخيام التي نشأت وترعرعت فيها..

وحاول الدكتور حسين أبو شنب أن يخفف من حدة الحوار، فرد عليه قائلاً: أنت زميلنا وصديقنا وموضع فخرنا وتقديرنا.. سأقول لك شيئاً واحداً: أنت ظاهرة مهمة في الشعب الفلسطيني، وتعلم أن الظاهرة لا تحدث كل يوم، ونحن لا نوجه نقداً لرسوماتك، ولا نطلب إليك أن ترسم ما يدور في أذهاننا؛ نحن نطالبك فقط بأن تكون للجميع.. لفلسطين بكل أطيافها.. وأن تتحرر في إبداعك وفنك من تأثير الآخرين أفراداً وتنظيمات..

وكان ذكاء المرحوم ناجي العلي لا يخونه في إدراك معنى الكلام، أو قراءة ما بين السطور، فقال له: يا دكتور حسين، أنا أفهم إنك تقصد الأخ محمد الصقر أو الجبهة الشعبية، أنا قلت لك إنني ابن مخيمات، وهذا يشي بما أريد أن تفهمه وأكثر، والأخ محمد من خلال موقعه كرئيس تحرير، فإنه قد يرفض

لي كاريكاتيراً لسبب أو لآخر ويطالب بغيره، وقد لا يحدث ذلك.. وهذا هو قدر تدخله في عملي، وفي كل الأحوال هو بيننا ويستطيع أن يؤكد أو ينفي ذلك. كان محمد الصقر يعتقد بأن ناجي العلي بلمساته الفنية الرائعة والمعبرة، ونقده اللاذع للأحداث ومجرياتها على الساحة الفلسطينية والعربية، يجعل القراء لجريدة القبس يبدأون قراءتهم لها من الصفحة الأخيرة (صفحة الكاريكاتير) لا من الصفحة الأولى، وهو محق في ذلك كل الحق.. وكان يعتقد بأنه حقق إنجازاً هائلاً حين استطاع أن يكسبه إلى جانبه، وكان له مآرب أخرى تخص العلاقة بشكل عام بين اطيافها فلسطينيا وعربيا

قال محمد الصقر: أنا لن أكون في موضع الدفاع عن ناجي ورسوماته؛ لأن ناجي -في الأصل- ليس موضع اتهام.. وناجي حرّ وله مطلق الحرية في كل ما يرسم، وهو- بالطبع- ليس ملكاً لنفسه؛ هو فنان والفنان هو ابن الجمهور، والجمهور وحده هو الذي يحكم ويوجه المبدع، وهذا ما قلته من قبل وما أقوله الآن وغداً..

توجهت بحديثي إليه قائلاً: أريد أن أسألك سؤالاً واحداً فقط، وأنا لا غرض لي من ورائه إلا حرصي على الظاهرة التي تقاتل بالريشة قتالاً قد يعجز عنه جيش مدجج بالسلاح: لماذا تضع الأخ ناجي في الخط الأمامي وجهاً لوجه مع الرئيس ياسر عرفات، علماً بأن الرئيس عرفات ليس صاحب مقام سلطاني، ولا حتى بلاط رئاسي؛ هو حالة ثورية قابلة للاجتهاد والنقد..

لكن، أهو الحالة الوحيدة من بين الزعماء العرب التي يسهل التركيز عليها، وتناولها حتى بشكل يومي؟ هل فكرتم بنشر كاريكاتير واحد عن جعفر النميري والفلاشا على سبيل المثال؟

فأشار ناجي بأصبعه إلى الصقر وقال: اسأله كم كاريكاتيرا رسمت عن زعماء العرب

فتبين من الحديث أن مثل هذه الكاريكاتيرات كان يعلقها الصقر في منزله.. وحين احتد الحوار قال ناجي وهو يشير إليّ: أنا لا أقبل نقداً من أحد غيرك أنت.. ورأيك حتى لو كان مخالفاً أو مخطئاً فهو موضع احترامي الخاص، فمثلما أتيت أنا من خيام البؤس والتشرد وأنت ظهرت من خنادق القتال..

ورحل ناجي العلي.. وترك رحيله الفراغ المتوقع، فالظواهر الإبداعية لا تتكرر بسهولة.. ويوماً بعد يوم تجمع لديّ عدد كبير من القصائد الشعرية والمقالات السياسية والثقافية..

وبعد زيارة الرئيس أنور السادات للقدس والاتفاقات مع الاسرائيليين، وزيارة مناحم بيغن، وتنصيب الياهو بن ساسون أول سفير إسرائيلي في القاهرة.. كتبت قصيدة بعنوان "سلخوا وجه عمر" ونشرتها الرأي العام على صفحتها الأخيرة.. ولم تكن لدى الصحف المحلية اشتراطات فيما يتعلق بنشر

القصائد الشعرية بالنسبة لي.. فكثيراً ما كنت ألتزم بكتابة المقالة السياسية في جريدة، وأنشر قصائدي في جريدة أخرى..

كان الجو الثقافي العام في الكويت أكثر تفاعلاً.. وكان عامة الناس يقرأون ويناقشون عبر وسائل الاتصال، أو حتى في اللقاءات العامة.. وكان المثقفون أنفسهم يناقشون بعضهم بعضا في كثير من الموضوعات والقضايا الأدبية، ولم تخل الصحافة في صفحاتها الثقافية من المتابعات الأدبية، ولم تخل الصحافة في صفحاتها الأدبية من المتابعات النقدية والمعارك الأدبية أحياناً..

وفي سياق هذه المتابعات تلقيت هاتفاً من الأخ إبراهيم الطوير المستشار الثقافي في السفارة الليبية آنذاك.. وعلمت أنه قرأ قصيدتي الأخيرة، وإلى جانب إعجابه الشخصي نقل لي بأدب حجم إعجاب السفير الليبي الأستاذ حسني المديرانذاك، ورغبته في اللقاء والتعرف عن قرب، فشكرته وتركت له تحديد الموعد الذي يراه مناسباً..

كانت الجماهيرية الليبية في ذلك الوقت تنشط من خلال سفاراتها نشاطاً مكثفاً في اتجاه وسائل الإعلام، والصحافة، والكتاب، والمبدعين بشكل خاص، وكانت تحرص على شراء أعداد كبيرة من المجلات الأسبوعية واليومية في الخليج، وأغلب الظن أنها كانت معنية. بالحضور الاعلامي المكثف. ورغم أنني كثيراً ما كنت أتلقى دعوات من بعض السفارات

للمشاركة في أنشطة وفعاليات ثقافية في بلدانهم، إلا أنني قليلاً ما كنت أستجيب لتلبيتها لأسباب تتعلق أولاً بمشاق السفر نتيجة لوضعي الصحي.. وثانياً لقناعات خاصة حول دور الأنظمة بشكل عام، وصدق نواياها على الصعيد السياسي والثقافي الإبداعي..

ولكن اللقاء الذي جرى مع السفير الليبي كان قد أحدث تغييراً في بعض القناعات لدي؛ فلقد وجدته مثقفاً ومطلعاً.. ومهتماً بالشأن الثقافي والإبداعي، كل الاهتمام بل ومتابعاً لما نشرته من مقالات وقصائد في الصحف الكويتية، ذلك إلى جانب ما أبداه من إعجاب بقصيدتي الأخيرة شكلاً ومضموناً وأسلوباً، وقال إنه توقف عندها وأعاد قراءتها مرات عديدة.. وفي نهاية اللقاء سألني المستشار الثقافي عن الدواوين أو الكتب المطبوعة لدي، فأخبرته لدي مجموعتين فطلب إلي إعداد مجموعة شعرية من أفضل قصائدي لطباعتها وتوزيعها في ليبيا والكويت، فشكرته على ذلك،

وكان سؤال المستشار إبراهيم الطوير قد أثار عدة تساؤلات لدي: لماذا لم أفكر في موضوع الطباعة والإصدارات بالفعل؟! ولماذا أتوقع من الآخرين أن يفعلوا ذلك؟!

إن دور النشر في معظمها تأخذ بالجدوى الاقتصادية لما تختاره من مطبوعات.. ودور النشر قلما تطرق أبواب الكتاب والمبدعين لطباعة

نتاجهم.. وهي إن فعلت ذلك لا تطرق أبواباً في الأصل بل هي تنتظر من يطرق ابوابها وهمها ان تحصد وحدها الأرباح، ومن يحاسب من في غياب القانون الذي ينظم العلاقة بين الكاتب والناشر؟!

أعددت مجموعتي الشعرية الأولى على عجل وأسميتها "فصول في زمن المأساة" وهو عنوان لإحدى قصائد المجموعة التي تتناول المأساة في صورها المختلفة، ولعل عناوين القصائد تدل على ذلك، فمن قصيدة حزيران إلى الضحية إلى بترول سيناء، والجنة والسلطان العادل والحكام المؤتمرون، وغير ذلك من الصرخات المتوجة "بمواجهة في أعلى قمم الخوف" والمنتهية "بقراءات ما بعد الليل" ولأنني مشارك بشكل دائم في كافة المهرجانات التي تنظم لها حركة فتح أو الاتحادات الشعبية الفلسطينية، أو منظمة التحرير الفلسطينية في المناسبات المختلفة، فقد ارتأيت أن تأخذ قصائدي طابع البساطة، والسهولة والابتعاد عن التعقيد لغة وأسلوباً ورمزاً، فآثرت استخدام الرمز الحيّ على التهويمات والاستعراض الشعري القائم أساساً على التلاعب في الكلمات والألفاظ والتراكيب اللغوية، فبعض الناس يعتقدون بأن القصيدة يجب أن تكون معادلة كيميائية، أو لوحة تتجاذب فيها الألوان وتتنافر بالقدر الذي يجعلها موضع اجتهاد للمتلقي، فيتفهمها بحسب ما لديه من خصوصية وجدانية وحضور ذهني، فمن يجد اللون الأحمر طاغياً في سطوته مدغدغاً لإحساسه السلطوي وجد في اللوحة ضالته، وعدّها معجزة الإبداع

التي لا قبلها ولا بعدها، ومن رأى خلاف ذلك، مما لا ينسجم مع مخزونه الوجداني والذهني، نفر منها وجعل نفيره حرباً على الفن وأهله.. وفي ديوان "فصول في زمن المأساة" لم تأخذ قصائدي طابع الحزن أو البكاء في معظمها، ولكنها جاءت تحمل في ثناياها غضباً وثورة وتقريعاً للتخاذل والانهزام، وكثيراً ما كان يسميها زملائي "بالحمم" أو "الشهب" أو القصائد النارية كما سماها الأستاذ عبد الله الشيتي مدير تحرير النهضة الكويتية آنذاك، أو الأستاذ سهيل الشنطي مدير تحرير اليقظة الذي كان يصر أن أكتب مقالتي على مكتبه الخاص في المجلة..

يا للزعامات في إفلاسها انطلقت
تحارب البحر والأمواج والسحبا
تحاصر الشعب منهوباً لشهوتها
وتطعم النار من غاباتنا حطباً
قف يا حزيران لا تخدع بما حسبوا
فكلهم مجرم يغتال ماحسبا
وكلهم سارق في ثوبه أثر
لميت كان للتاريخ منتسبا
فلا الشعارات ما قالوا وما فعلوا
ولا الحقيقة كانت مثلما وجبا

وهكذا فان قصائد ديواني الأول كانت في معظمها تسجيلاً لمراحل سابقة، بدءاً من النكبة ومروراً بانطلاقة فتح، فالنكسة وعذابات الهجرة والتشرد والمأساة في كل وجوهها..

حضرت من عالم المأساة منتهيا
ومذ بدأت حرقت الثوب والهدبا
حضرت من آخر الأشياء محترقا
ومذ أتيت رفعت اللوم والعتبا
أنا دماء ضحايا لا عداد لها
وعن جراحاتها ما زالت منتدبا

وفرحت جداً لصدور ديواني الأول، بعد أن دفع به الأستاذ إبراهيم الطوير إلى دار الطليعة للطباعة والنشر، وسلمني ألفي نسخة لتوزيعها في الكويت على أن يرسل الباقي للجماهيرية الليبية، وخلال أشهر معدودات كانت الأعداد قد نفدت، ولم يتبق منها إلا القليل.. فبادرت دائرة الإعلام في حركة فتح، وأبدت استعداداً للطبعة الثانية.. لكنني آثرت طباعة مجموعة شعرية ثانية، كنت قد أنجزتها مؤخراً، ونشرتها قصيدة تلو الأخرى في جريدة الوطن بعنوان "ليلة بحرية عاصفة" كانت العلاقة التي تربطني بالبحر علاقة متينة جداً لدرجة أنني كنت أشعر بأنه الحبل السري الذي يصل بيني وبين وطني البعيد.. والبحر صديق مخلص حين تجالسه منفرداً يشي لك بأسرار

الحياة والوجدان، ويحدثك عن الماضي وأحداثه، وعن الحاضر وإرهاصاته، وعن المستقبل وغموضه الذي يستعصي على العرافين، وأصحاب الطرق المختلفة في استشفاف الغيب في كثير من الأحيان.. وهو مستمع جيد، ينصت إليك ويكاد يتلمس بأمواجه وشذراتها، ما لديك من أحاسيس ومشاعر، يجعلها تتدفق على لسانك كلاماً ولغة وبياناً، وهو حافظ أمين للأسرار، ومستودع كبير لأمانات القلوب، وعذابات المحبين..

لذلك، فإن صورة البحر –كصورة الوطن– ظلت حاضرة في خيالي، ولم تفارق مكانتها حتى الآن.. وحين كتبت أحدث قصائد الرثاء لدي قلت لصديقي الراحل "أبو خلوي"، زهير الدويك رحمه الله:

وكنت بحراً على أمواجه سفر
وعند شطآنه كم يحتوي بشراً

ورغم أن عنوان المجموعة قد يشير إلى علاقة قصائدها بالبحر، إا أن ذلك لم يحدث بالفعل؛ فالقصائد في معظمها تأتي امتداداً لقصائد الديوان التسجيلي الأول، ولكنها تتناول الحاضر والواقع والمستقبل، خلافاً لموضوعات فصول في زمن المأساة، وما جاء في مقدمة الديوان التي كتبها الأستاذ عبد العزيز السيد مسؤول دائرة الإعلام والتوجيه في حركة فتح/الكويت آنذاك يعطي الدلالة على ذلك، فهو يقول: "إن الاستماع إلى شهاب محمد إبحار

معه في رحلة العودة بكل آلام الطريق، وعذابات السفر فوق الدرب الوعر الملغوم".

وعلى الصفحات التالية يقدم إلينا شهاب محمد ديوانه الثاني "رحلة في بحر عاصف" بعد أن نفد ديوانه الأول (فصول في زمن المأساة) بشهور معدودات"، والرحلة مع هذا الديوان لا شك أكثر عناءً وإمتاعاً للقارئ في آن معاً؛ فهي رحلة محفوفة بالعواصف لأنها ليست قراءات للماضي كما في العديد من (فصول في زمن المأساة) في الديوان البكر، وإنما إبحار للغد الآتي من بعيد"

سقط القناع..
وغادر المتكلمون،
وأسدلت كل الستائر..
ويئن في القاعات،
صوت العازفين على المشاعر..
لا سورة الرحمن قد قرئت
ولا أنغام شاعر..
والساهرون تفرقوا
بتبادل الضحكات وانتهت المحاضر
هذي اجتماعات الكبار

مقامر ورفيق ساحر
والقهوة السوداء
تغزو قاعة التحرير
والدنيا عشائر..

وصدر الديوان الثاني عن دائرة الإعلام في حركة فتح في نهايات عام 1978، وتشجعت كثيراً حين علمت بأن صدى صدوره كان قوياً، وأن الطبعة الأولى لم يتبق منها سوى أربعمائة نسخة كانت في حوزتي مخصصة للإهداءات..

وبعد صدور ديواني الثاني، أصبحت قصائدي أكثر تداولاً وعرضة للنقد في أوساط الكتاب والمثقفين، وحتى إن بعض قصائدي الجديدة كانت هي الأخرى موضع اهتمام، ومعرضة للنقد خاصة في الأمسيات التي كثيراً ما كنا نحييها باسم الاتحاد، أو بالتنسيق مع رابطة الأدباء الكويتيين.. وإذا كنت أعتمد على الذاكرة في استحضار بعض ما قيل، أو كتب حول الديوانيين فإن مرد ذلك يعود لفداحة الخسارة التي تعرضت لها حين فقدت جانباً مهماً من أرشيفي الخاص، مقالات، وكتابات، وقصائد، نتيجة لاقتحام مكتب منظمة التحرير والعبث بمحتوياته أثناء الاجتياح الأمريكي للكويت.. وبعض الزملاء تفهموا محاولتي الأولى لاستحضار جانب من الماضي القريب، وإعادة صياغته بلغة وأسلوب شعري مغاير وقليل من هؤلاء اعتقد بأن المأساة انتهت

بانطلاقة الثورة الفلسطينية، وأن مجرد العودة لأجوائها يعني الركون لليأس في صورة من صوره المتعددة، لكن الصورة الأخرى التي جعلتني أرفض مجرد التفكير بهذا الرأي هي صورة إعادة الصياغة للموقف الشعري القديم في أجواء الانطلاقة المجيدة.. لا في أجواء النكبة والهزيمة والتشرد والضياع، لذلك وجدت قصائدي قد أفلتت من عقال اليأس والضعف والحزن، لتنطلق في أجواء الفعل الثوري دون أن تكون ترجمة له؛ لأنني اعتقدت تماماً بأن الثورة في انطلاقتها لا تقوض المأساة المستمرة في تداعياتها، ولكنها قد تحد من اندفاعاتها بالقدر الذي تحدثه من تحول وتغيير يحقق ذلك، وإن الانتصار النهائي يعجز عن ذلك لسبب بسيط، وهو أن الخسائر الكبيرة، والتضحيات لا تغادر أهلها ببساطة ويسر، فالشهداء هم أحياء عند ربهم لكنهم لا يعودون، والجرحى والمعوقون، والأسرى والمحررون وآثار السجون في أنفسهم وأجسادهم لا تزول ببساطة القول بأننا انتصرنا، أو انطلقنا، وأصبح بمقدورنا التعاطي مع جوانب الخراب في حياتنا، وهي مخلفات الاحتلال وتركته الثقيلة..

لذلك، فإن جذر المأساة ضارب في عمق الزمن، والمسافة لا تنتهي إلا بوضعه موضع النفي التام.. ويظل ذلك ممكناً حين تعلو القصائد والكلمات فوق الألم والجراح والمعاناة التي هي أسُّاس الفرح والانتصار، فهل يفرح الإنسان إن لم يكن فرحه آتياً بعد إحساس مخالف له؟!

لـذلك قلـت وأقـول: إن هـذين العملـين قـد جـاءا كاسـتقراءات شـعرية عززت صحة الرأي ودقته، خاصة أنهما جاءا بين مفصلي النقلة الكبرى، ما بين أدب النكبة وأدب المقاومة الذي شغل الحيز المكاني والزماني للقصيدة الفلسطينية وحداثتها ردحاً من الزمن.. وهنا أقصد الحداثة التي لا تتطاول على مقام وروح القصيدة وحضورها.. فالحداثة لا تتجاوز القول بصريح العبارة والوضوح الذي يؤكد أن الشعر هو الشعر قديمه وحديثه، وهناك شعر أو لا شعر فقط..

ولقد كان خندقَ القصيدة الشعري في هذه المرحلة المقاتلون ووجدانهم، فالشعر يأخذ الدور الطبيعي الذي يؤدي الوظيفة الحياتية.. ومثلما تخلص الجيل من أثر قصيدة النكبة ووقعها، دخلت أجواء القصيدة الجديدة، وانعكس ذلك في الديوان الثاني "رحلة في بحر عاصف" وفيه لم أتنازل عن استقراءاتي وخندقتي في أبعاد الموقف كله، ولأنني لم أكن متفائلاً وجدت نفسي منحازاً للتعبير عن حزني الذي قد يكون نتيجة لتقديري الخاص، بأن المستقبل يحمل في غموضه ما يبعث على الحزن، فكان لا بد من الثورة حتى على الواقع، ورفض صنوف القلق فيه لاقتلاع أعمدة اليأس المتصل باللحظة، وجمود الحركة في التغيير، وهو يحاول الاتصال بغياهب المجهول ليصدر علينا أحكاماً بالمصير القاتم..

قد أكون مخطئاً في ذلك، غير أنني ما زلت أشعر بأن الذي كان كان.. وأن الخطأ يتدحرج عكسياً من الأسفل إلى الأعلى.. وكأن النهر لا يسير في مجراه.. وإنما يعاود الحركة من البحر إلى النحر.. فهل نصعد الجبل؟! وأين؟! هل بقي جبال لا يقطنها المستوطنون.. إذن لم تتبدل أشياء كثيرة من الماضي والحاضر.. فماذا يحمل لنا المستقبل؟ وجدت نفسي فيما بعد مشدوداً لكتابة النص المسرحي الشعري، وكنت أظن أن لغتي البسيطة، وأسلوبي السهل، سيمكن المواهب الفنية من تجسيده على الخشبة، خاصة وأن المسرح الفلسطيني يخطو خطوات متعثرة قياساً بما حققه المسرحيون الكويتيون من تقدم ملحوظ.. وكان صديقي المرحوم على كراجة عضو اتحاد الكتاب الفلسطينيين قد أعدّ من قبل للاشتراك مع بعض المسرحيين المصريين "بثورة الزنج" للمرحوم معين بسيسو، وحاول- كذلك- أن يقدم "مقتل جيفارا" ولكنه لم يتمكن لأسباب فنية وسياسية، بعد أن قطع معهم شوطاً طويلاً في القراءة والتدريب..

وفي أحد لقاءاتنا العديدة التي كانت تضم أحياناً شقيقه د. عبد القادر كراجة، والأستاذ حسن عبد الهادي سألني عن المسرح والمسرح الشعري بشكل خاص، فأخبرته أنني على وشك الانتهاء من كتابة نص مسرحي شعري جديد بعنوان "أحاكمكم"، فأبدى رغبة في الاطلاع على ما تم إنجازه من النص فاعتذرت بحجة أن النص بحاجة إلى قراءة ثانية، ومعالجة وتنقيح في

بعض مشاهده.. وتحت ضغط إصراره الشديد اضطررت إلى إطلاعه على الفصلين الأول والثاني من النص الذي جاء على شكل لوحات متكاملة تتناول الواقع الصعب في صورة فنية مغايرة، فأبدى حماسه الشديد لتجسيده على الخشبة ليكون أول نص مسرحي شعري للمسرح الوطني الفلسطيني في الكويت، وبعد أيام قليلة انتهيت من كتابة "النص" وقضيت أياماً أخرى في المراجعة والتنقيح.. وما إن تيقنت بأنه أصبح في المستوى المطلوب أعددته للنشر على حلقات في جريدة الوطن الكويتية.. وسلمت نسخة منه لصديقي الأستاذ علي كراجة الذي قضى أياماً وليال طويلة في تدريب عدد من الهواة لعرضه.. ومن خلال المتابعة لعدد من جلسات القراءة والحفظ لاحظت حجم الصعوبة التي يواجهها المخرج في التعاطي مع النصوص الشعرية، واكتشفت أن قراءة الشعر خلاف أساليب التعبير التي تفرضها خصوصية التمثيل والعرض المسرحي تحتاج إلى شخصيات متمكنة ومتخصصة في تطويع التراكيب الشعرية لفن التمثيل والعرض.. وبعد مدة كافية من الاستعداد قدمت الفرقة المسرحية الناشئة عروضها على مسرح اتحاد عمال الكويت لمدة أسبوع، ثم انتقلت الفرقة إلى سينما الأحمدي لتقدم عروضاً لثلاثة أيام في المنطقة العاشرة (الأحمدي)، وقد أجمع النقاد من المتخصصين في شؤون المسرح على أن العرض المسرحي يندرج في إطار التجريب، وأن النجاح الذي تحقق لا يغفل حقيقة كون المسرح الفلسطيني

يفتقر في الأساس لعناصر كثيرة من مرتكزاته، وفي مقدمتها الإمكانات المادية، والطاقات الفنية المؤهلة..

وتدور الأيام.. وتستمر الحياة.. ويظل بعض الكلام أو القول مجازفة، وبعضه الآخر يتجاوز على حساب الحقيقة والموقف الصعب، يجب أن يخرج الكلام من دوامة العبث اللفظي إلى مستوى التحديات، فلا ترف لإثراء الرغبات.. ولا فوضى لاتقاء الرهبة والخوف، والبحار التي تطرح أمواجها على حواف الشواطئ هي التيارات الجارفة، في بحر الشعور، نحو الشعور، ذلك أن الشعر صورة من صور الكلام والحقيقة لغة الواقع الصعب.. وأمام ذلك كله رأيت نفسي في القصيدة التي تقدم نفسها لا في القصيدة التي تقدم صاحبها.. وفي اللغة التي تفهمني.. لا في اللغة التي أفهمها.. وبعض ما تعتقده صواباً.. قد يظنه الآخرون خلاف ذلك..

وبقيت مصوباً إرادتي نحو الفكرة.. فالأساس الذي تستند إليه في أهدافك البعيدة والقريبة، هو الواقع الذي لا تستطيع أن تقفز عنه، أو تسقطه من حساباتك، الواقع يجب أن تستوعبه تماماً بالقدر الذي يمكنك من إحداث التغيير الذي تتطلع إليه.. والواقع هو مجموعة الظروف المحيطة التي تحدث في حياة الأفراد والمجموعات تحولاً مفروضاً يفاجئ قوة الاحتمال، ومقاومة الناس التي- كثيراً- ما ترضخ وتستكين في صراع الإرادات الذي يأخذ وجوهاً متعددة، ويلقى بثقله في كل اتجاه..

لذلك كله فهمت المعادلة تماماً.. فأصبحت استعداداتي أكثر يقظة في تلقي المفاجآت، التي لم تتوقف. وهي مستمرة حتى الآن.. فكان من أكثرها صعوبة، وأشدها وقعاً على النفس، سقوط أبو علي إياد في بداية السبعينيات شهيداً، واغتيال علي ناصر ياسين في نهاية السبعينيات.. وكانت الساحة الفلسطينية قد شهدت أحداثاً مؤسفة أدت إلى سقوط عدد من الكوادر القيادية في م.ت.ف. على يد أولئك الذين بنت الأوهام لها قصوراً في خيالاتهم، فاعتقدوا ما اعتقدوه صواباً وهم مخطئون وآثمون في سلوكهم الذي تجاوز كل الحدود، وجعل الدم الفلسطيني مهدداً أمام حرمة الاقتتال.. ومنذ ذلك الوقت وجدت أن للشهداء حق الاحتفاء بهم.. وتمجيد أعمالهم.. وإحياء ذكراهم.. بما ينصف هؤلاء.. ويجعلهم قدوة الحرية والأحرار.. في مسيرة النضال المتصاعدة، فكانت قصيدة "العهد" التي تضمنها ديوان "حلم الفتى العائد" قصيدة الرثاء الأولى في قصائدي على مستوى الشعر العمودي.. ولم تنشر في الديوانين الأول أو الثاني؛ لأنني كنت أعدها للنشر في المجموعة الثالثة التي تعطل نشرها، لانصرافي نحو المسرح في اهتماماتي للفترة التالية.. وكنت قد كتبت قصيدة أخرى قبلها في الموضوع ذاته من الشعر الحر المرسل لم ترق لبعض الأصدقاء الذين أشاروا عليّ بكتابة قصيدة أخرى من الشعر العمودي، لإلقائها في أربعين الشهيد علي ياسين، خاصة وأن لجنة الإعداد للمهرجان، قد وضعت ذلك في حسبانها، وأدرجته في برنامج الحفل.. وما كان مثل هذا الأمر بحاجة إلى تفكير لاستجماع مكونات

الموقف الشعري.. لأن علي ناصر ياسين وطريقة اغتياله، وما تركه من أثر في نفس كل من عرفه كفيل بأن يفجر مكامن الإبداع في ميادينه المختلفة.. ومنذ ذلك الوقت تبلورت القناعات عندي بين الشعر في عموده الشعري التقليدي، وبين النص الشعري في تطوره الحرّ المرسل.. وما جاء في قصيدة العهد يجسد الوصف كله لحجم القلق والتوتر الذي ساد آنذاك..

أنا كتبنا بهذا الدم قصتنا ونحن أمهر من في الكون فرسانا
هنا على صخرة في الدار ثائرة وفي بقايا تراب ظل ظمآنا
هذي حكايتنا والكل يعرفها فمن سيطلب منا بعد برهاناً!؟
ومن ينصب سفاحاً على دمنا ومن سيعبد بعد اليوم أوثانا!؟

هذا ومن خلال الجدل الذي دار حول الشعر قديمه وحديثه فيما مضى، كنت أعتقد دائماً أن الشعر يجب أن يمر في مراحل الإبداع كلها، ومن اعتقد أن بامكانه أن يقفز في الهواء، فإنه لن يواجه إلا السقوط.. إن الصعود يتطلب مثابرة في الدور واجتهاداً فيه يصل مستوى لا يرضى صاحبه بقدر ما يحقق له حافز النقلة النوعية، فالشاعر الذي لا يبدأ بالنص الشعري العمودي تظل شاعريته ناقصة عكس الشاعر الذي يبدأ بالنص العمودي، ثم يخوض تجربة الشعر الحديث، فتجربة الشعر الأكثر حداثة أو الشعر المنثور أو حتى تجربة ما وراء الحداثة، لأن الشعر يظل في قديمة وحديثه هو الشعر.. وإن التطور الذي طرأ في الشكل والمضمون على القصيدة الحديثة قد يحتمل

تطوراً في ميادين القصيدة التقليدية بما لا يمس جوهر الشكل؛ ذلك أن التطور لم يكن، ولن يكون محصوراً في شكل النص الشعري، ومن هنا بدأت اندفاعتي في اتجاه الشعر الحديث، غير أنني بقيت مشدوداً للقصيدة العربية الأصيلة بما تحمله من روح التجديد ومضامينه، فقد استهوتني تماماً قدرة الشاعر على استلهام الصور المعبرة والتراكيب اللغوية في قوالبها الفنية، وما تخلفه في النفس من أشكال المتعة بإيقاعاتها الموسيقية كلما كانت متجددة وغير مطروقة..

تجمعت لدي أعداد كبيرة من القصائد الشعرية خلال الفترة التي تلت اغتيال المرحوم علي ياسين، رغم أنني كنت مضطراً للقيام بأعباء وظيفة في الشأن الإداري والمالي تتناقض مع اهتماماتي الخاصة بالشأن الثقافي والإعلامي.. فعملي في السفارة الفلسطينية كمعتمد للصندوق القومي الفلسطيني واقع فرضه علي فراغ هذا الموقع بمغادرة صاحبه، وإصرار السفير عوني بطاش، ونائبه الحاج محمد الجابر على قيامي بأعباء هذ الموقع، ولو بشكل مؤقت.. وقد علمت لاحقاً أن سرّ إصرارهما على ذلك يعود لرغبتهما في سد ثغرة طالما تسلل منها المروجون، والمرجفون، وأصحاب الألسن حول إشاعة المال، والسرقات التي يتبادلها الناس في دورة الإشاعة، ومصادر تكوينها الأولي، وهم يعتمدون في ذلك على مكانتي وسمعتي النضالية، كواحد من أوائل جرحى النضال الفلسطيني، رغم أنني كنت موعوداً بقسم الإعلام في

السفارة، من قبل المرحوم علي ياسين، وقبل استشهاده بأسبوع واحد، وحين رفضت الفكرة من أساسها، جوبهت بإلحاحهم الشديد، الذي فرض علي التصدي لمهمة لست مستعداً أو مجهزاً للقيام بأعبائها كما يجب، فاضطررت وخلال الشهور الأربعة الأولى، إلى قراءة العديد من كتب الإدارة والمحاسبة، وخلال شهرين آخرين من التدريب العملي، أصبحت قادراً على إعداد موازين المراجعة الشهرية، وإتقان العملية الحسابية من ألفها إلى يائها، الأمر الذي جعلني قادراً على متابعة الأعمال المحاسبية، وإدارة شؤون القسم المالي الذي يضم في صفوفه عدداً من الجباة المتفرغين، وأعداداً من الجباة نصف المتفرغين.. وهكذا أصبحت محاسباً ومسؤولاً للقسم المالي في السفارة بالخبرة التي استمرت أكثر من عشر سنوات، وأهلتني للقيام بأعمال التدقيق على حسابات السفارات، ودوائر المنظمة في إدارة الصندوق القومي في أوائل التسعينيات قبل عودتي لأرض الوطن في نهاية عام 1994..

ومن خلال هذه المسؤوليات، أصبحت مثقلاً بأعباء العمل، الذي كثيراً ما كان يضطرني للدوام المسائي، حتى لا ينعكس بالسلب على نواحي الأنشطة الإبداعية، التي هي أساس ومصدر اهتمامي الأول؛ ففي السنوات الأولى من الثمانينيات شغلتني المتابعات الإدارية والمالية عن غيرها من الاهتمامات، ووجدت أن الاعتذار عن هذه المهمة أمر لا بدّ منه، إذا ما شئت استمرار التدفق الشعري والأدبي في صوره الاعتيادية، فحاولت ذلك

بالفعل، ولكن الأمور سويت بفرز مساعد لي في الشؤون المالية، وتعزيز القسم المالي باحتياجاته الوظيفية..

ولم ينحصر عملي في السفارة الفلسطينية في الكويت، في الشأن المالي فقط بل إن جانباً من النشاط الإعلامي وخاصة البيانات الصادرة عن الاتحادات الشعبية الفلسطينية، ولجنة الانتفاضة والتصريحات كلها ظلت من الأعباء الإضافية التي لازمتني طول الوقت، خلافاً للدور الذي بقيت أقوم به كأمين لسر اتحاد الكتاب لدورات متعاقبة، وما يترتب عليه من إعداد وتنفيذ لبرامج ثقافية خاصة بالاتحاد وأعضائه..

وبعد عام 1982 تحولت الساحة الكويتية إلى ساحة رئيسية خاصة في الشأن الفلسطيني، وانعكس ذلك على أوجه النشاط كله، وفي الجانب الثقافي برزت مشكلة الانشقاق في اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، بوصفه أحد أهم المواقع التي تأثرت بما حدث، وأذكر ليلة الانشقاق، أنني استقبلت في مكتبي أحد الضباط الكبار الذي جاء إلى الكويت، برفقة أحد قادة "الحركة التصحيحية"، كما سميت آنذاك، وكان مكلفاً بضرورة إقناعي بجدوى الحركة، وأهيمتها في الظروف الصعبة التي تمر بها مسيرة النضال الوطني الفلسطيني.. لكنني فاجأته في هذا اللقاء بحجم المعلومات التي استطعت الحصول عليها حول الانشقاق، ومراحله وترتيباته، وأسماء الضباط المشاركين، وأظهرت له رفضاً قاطعاً في الاستجابة لمثل هذا العمل، لأسباب عديدة،

أهمها أنّ هذا التحرك الخطير يأتي استجابة لمخططات معادية، تهدف إلى النيل من إرادة الشعب الفلسطيني، ووحدته، بعد فشل الاحتلال والمتآمرين في تحطيم قدرة الفلسطينيين على الصمود والمقاومة.

ورغم العلاقات الخاصة التي كانت تربطني مع أعداد من ضباط الانشقاق وقادته، إلا أنني آليت على نفسي إخضاع مثل هذا القرار الخاطىء لضوابط.. غير الضوابط التي يجب أن تكون في مستوى عال من التقدير، والحكمة، وحسن التصرف، والقدرة على قراءة المستقبل، في ضوء الواقع ومعطياته..

وواقع الحال أنني كنت متتبعاً لما جرى منذ بداياته الأولى، وقد شهدت فصلاً من فصول ذلك في بيروت أثناء فترة انعقاد المؤتمر العام للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين في الرملة البيضاء، وفي فندق "البوريفاج" تحديداً، عندما كان التوجه العام في مستواه السياسي الأعلى هو اختيار المرحوم "أبو سلمى" رئيساً للاتحاد.. وعندما تم إسقاط هذا التوجه في قاعة المؤتمر بعد مغادرة الأعضاء الحركيين للجلسة وفشل التصويت.. وقتها التأم اجتماع الحركيين من الكتاب والصحفيين في مقر المجلس الثوري.. بحضور الأخ أبو عمار وعن يمينه ويساره كل من الأخ أبو نزار (صخر حبش) والأخ (ماجد أبو شرار)، وبدا التجهم والوجوم واضحاً على وجه الرئيس الذي ظل يتطلع في الحضور، ويحاول بصمته ونظرته القوية أن يعبر

عن رفضه وغضبه الشديد، حتى أصبح المكان المكتظ بالحضور يعد أنفاسه في أجواء مشحونة قطع صمتها الحاد كلمته التي صفعت الجدران، وارتد صداها إلى الآذان المنصتة، دون أن تقطع همسة أو تمنع حدة الإيقاع الذي أخذ منحى التوبيخ والإهانة، وبلغ حدّ استخدام الكلمات النابية التي وجهها مستنكراً سقوط القرار الحركي القاضي بانتخاب" أبو سلمى " رئيساً للاتحاد وإفشاله، ومحملاً الأعضاء الحركيين مسؤولية هذا التصرف غيرالمسؤول..

عندها لم أجد لدي الصبر الكافي للتفكير فقلت بصوت قوي: أخ أبو عمار، وبقيت جالساً في مكاني في الصفوف الخلفية، فرد مستغرباً ومستهجناً لأسلوب مقاطعته، فقال وهو يتجمع في يديه القابضتين على طرف الطاولة، وفي نظراته الباحثة عن مصدر الصوت:

مين؟! في إيه؟!

فرفعت يدي وقلت: أنا يا أخي الرئيس..

فكرر قوله: في إيه.. عايز تقول حاجة؟!

قلت: أنت الذي لا تريد أبو سلمى رئيساً؟

فسألني (مستغرباً): كيف.. ومين قال الكلام ده؟!

فأخبرته أنه هو الذي أصدر الأوامر للحركيين بمغادرة القاعة أثناء الانتخابات، فاستشاط غضباً، وأخذ يصرخ: مين قال كده؟!

وألح في معرفة مصدر المعلومة..

عندها قلت له: إنني تلقيت بلاغاً حركياً في القاعة، يقول بأمر من القائد العام يغادر الفتحاويون القاعة قبل التصويت، فشعرت أنه قد بلغ الذروة في توتره وغضبه، وهو يصرخ: مين قالك الكلام ده؟! وحاولت جاهداً ألا أخبره بذلك، ولكن الأصوات تعالت من حولي طالبة الإجابة، فقلت له: زميلي الأخ صالح نزال، فنظر نظرة استغراب في وجه الأخ أبو نزار، والأخ أبو سلام عن يساره ويمينه، وضرب الطاولة بيده ضربة قويةوقال وهو ينهض من مكانه لمغادرة القاعة: يسجن صالح نزال وحنكمل اللقاء لما تصيروا رجالة..

وفي الغرفة المجاورة للقاعة ذاتها في مقر المجلس الثوري، كان الحوار بين أطرافه قد أخذ المنحى الذي كرس أبو سلمى رئيساً للاتحاد، ولم يسجن الزميل صالح نزال، الذي كنت على استعداد لأن أسجن مكانه وألا أغادر بيروت قبل عودته معنا إلى الكويت..

وفي اليوم التالي انتخب أبو سلمى رئيساً.. وطلبني الرئيس إلى مكتبه.. وشكرني على الشجاعة التي أبديتها، وقلت له: نحن على العهد المكتوب

بالدم.. وسنبقى.. وذكرته بالأيام التي قضاها معنا في قاعدة الشهيد منهل شديد، والمرات التي استوقفناه فيها عند الفجر وهو يهم بالوضوء لأداء صلاة الصبح.. وهو يقول: الله.. دا أنا يا ابني.. صباح الخير..

كانت هذه الإشارات المنبعثة من أجواء مثل هذه اللقاءات وخلافها الإرهاصات الأولى لتوتر الأطر التي سبقت الحرب الطويلة عام 1982. وحتى تكون الصورة مكتملة الوضوح، فإن كلمة السر هي أن الانشقاق الذي حدث ما كان له أن يحدث لو بقي أبو سلام (ماجد أبو شرار) حياً؛ لأن هذا القائد اتفقت أو اختلفت معه كان يشكل صمام الأمان لوحدة الحركة.. وكان خلاف ذلك كابحاً لأي حركة أو تململ يمكن أن يحدث في اتجاه الانشقاق، لأنني أعتقد جازماً بأنه لم يكن ميّالاً لمغامرة، هو أعرف الناس بتداعياتها وخطرها، ولكنه كان مقابل ذلك يضغط الأطر، ويحاول جاهداً أن يجعلها قادرة على استيعاب الآراء والأفكار التي كثيراً ما تضيق بها..

وعليه، فإن الساحة الفلسطينية في الكويت.. كانت مسرحاً آخر لا مشهداً من مشاهد التوتر في الشأن الداخلي، فانقسم الرأي في اتحاد الكتاب، وأدى انقسامه إلى تحالف قوى فتحاويه مع اخرين في قائمة (أبو سلمى) أمام قائمة الوحدة الوطنية التي تمثل الحركيين الفتحاويين والمستقلين، وكانت النتيجة التي أدت إلى فوز قائمة أبو سلمى، التي اخترقت فقط

بعضوين من قائمة الوحدة الوطنية، كنت أحدهما، الأمر الذي أثار كثيراً من الشكوك، كان مصدرها بعض ضعاف النفوس، الذين حاولوا الإساءة لموقفي نتيجة للأصوات التي حصلت عليها، وبعضها لم يحسب في الأساس لكونه مخالفاً لقانون الانتخابات، فبعض الأوراق كانت تحتوي على عبارة (قائمة أبو سلمى وشهاب محمد) ورغم ذلك حصلت على أعلى الأصوات، وهو ما جعل البعض يظن بي سوء الظن.. وفي تلك الأثناء وجدت أمام هذا الموقف أن انصرافي للعمل في كتابة نص جديد أمر يستحق الاهتمام تحت وقع الإحساس الذي لازمني بعد انعقاد مؤتمر الاتحاد العام للفنانين التعبيريين في تونس، ومشاركتي في إعداد النظام الأساسي له، كرئيس للجنة النظام الداخلي في المؤتمر، حيث شعرت بأنني بت معبّأ بمخزون كاف لكتابة النص الشعري المسرحي الثاني، وهو "سلطان الوهم"، الذي حاولت فيه جيداً الاستفادة من بعض الملاحظات التي أبداها النقاد، والأصدقاء، وخاصة ما يتعلق بسطوة النص الشعري، الذي جعل العمل المسرحي أقرب إلى القصيدة الممسرحة منه إلى النص المسرحي..

وعن زمان المسرحية قلت إنه نقش في عنق أنثى البحر، أو رمز في قبعة الطير البحري.. أو سنبلة في كتف الرجل الأول في العقد الأول للعصر الرومانسي الأول في الزمن الأول، وهو ما يشي بعلاقتي المتواصلة مع البحر، وعن مكانها قلت، خاصرة الوطن العربي، وبوابته الغربية الممتدة من أول

حرف في السطر إلى آخر قنبلة يدوية.. وهي إحاطة بظروف الزمان والمكان معاً.. ثم وجدتني في فصلين أخط اللوحات الست لعمل مسرحي شعري ينطلق من واقع المأساة الصعب، ويرسم صورة المستقبل، في بعض جوانبه الغامضة، حتى أن المقارنة بين النص وما حدث في السنوات القليلة التالية جاء متطابقاً إلى أبعد الحدود...

" مارشات عسكرية وإيقاع موسيقى القرب
يهدأ تدريجياً"
المذيع: "يطل من السبورة"
صوت السلطان..
صوت الرجل الأول..
في كل زمان..
"يبدأ بقراءة الوصايا"
بعد صلاة الفجر، عقد فخامته،
جلسة عمل للوزراء وللنواب
وللتجار وللأعيان
وتدارس فيها المجتمعون
الأحوال الصحية والنفسية
في أعقاب الغزو،

وأصدر في أعقاب الجلسة

هذا "الفرمان"

يحظر عقد الجلسات السرية والعلنية،

يحظر تبديد الوقت

بمناقشة الأحوال الجوية،

يحظر مد يد العون

إلى الأسر المنكوبة،

أو للجمعيات الخيرية..

يحظر تأييد الأحزاب،

وحمل المنشورات السرية..

يحظر تسوية الطبقات الأرضية،

التحتية منها والفوقية..

يحظر تزويد الجامعة بكتب التاريخ،

ويشطب قسم التاريخ

وقسم اللغة العربية،

تشطب سيرة عنترة العبسي

وتشطب من دستور الدولة

كل الجمل الثورية،

يحظر ترويج إشاعات في الدولة،
والأحزاب الثورية في الدولة،
وجدت كي تشهد بالزور
لوحدتنا،
نحن السلطان الأول..
في الزمن العربي الأول..
نعلن أن جميع عبيد الدولة أحرار
أحرار..
احرار...

"مشهد من اللوحة الثالثة/الفصل الأول"

ولأن الشخصية الرئيسة في النص مطلقة وغير محدودة تماماً، كما هي الحال بالنسبة إلى زمان ومكان النص المسرحي، فإن الفكرة التي تدور حولها المسرحية هي مزيد من الإدانة والرفض لمفاسد الوضع السياسي، والحالة العضوية التي تربط بين المصالح الضيقة ومخططات الأعداء والغزاة..

كان المؤتمر العام التأسيسي الأول لاتحاد الفنانين التعبيريين الذي عقد في تونس عام 1984 بداية موفقة تضع الفن في مستوياته المختلفة، أمام دوره الأساسي والمتميز في مسيرة النضال الوطني الفلسطيني.. فإذا كانت الإنجازات

على صعيد الغناء، والدبكة، والتراث الشعبي، والرسم، والتصوير، والسينما التوثيقية.. الخ، قد حققت نجاحات مقبولة، فإن إخفاقات أخرى على مستوى المسرح، والسينما، والتمثيل، والإخراج.. الخ، ما زالت في أطوار التجريب.. وأن ما هيىء للفنانين الفلسطينيين في ذلك الوقت من مشاركة مكثفة في مؤتمرهم، وما أنجز من إسهامات لهم على مستوى العروض المسرحية، سواء في التمثيل والإخراج، كان كفيلاً بتحقيق التقدم المطلوب، غير أن ما شهدته الحالة الفلسطينية بشكل عام من تدهور في نسيج العلاقة، أدى إلى تسرب الانشقاق حتى إلى الأطر الفنية التي كانت هي الأخرى ضحية لمؤامرة الانشقاق؛ فالفرقة الواحدة، انقسمت على نفسها مرات عديدة، كما تنقسم خلايا النحل مع فارق في التشبيه؛لأن انقسام خلية النحل طريقة تكاثر ونظام إنتاج تصاعدي، في حين أن انقسام الفرق الفنية والمنظمات الجماهيرية بشكل عام، كان انقساماً عكسياً يؤدي إلى شلل الأطر، وعدم قدرتها على إنجاز ما يمكن أن يسجل لها زيادة ونقصاً.. لذلك أصبح الاتحاد إطاراً مهجور الطاقات التنظيمية والإبداعية، شأنه في ذلك شأن الاتحادات الأخرى التي ظلت متنازعة.. ولأن الاتحادات بشكل عام هي قاعدة من قواعد منظمة التحرير الفلسطينية، وأن منظمة التحرير هي المستهدفة في المحصلة الأخيرة، فإن التسلل الذي حدث كان متوقعاً ومدروساً.. وكان لا بدّ من استغلال الوقت في محاولة إعادة ما أحدثه بريق

الموقف في طريقه من تصدع، ولا بد من الخطوات الإجرائية التي لا تقبل المراهنة على النتائج.

فكانت الخطوة الأولى إعادة تصويب الأوضاع في أطرها التنظيمية، ومع موعد الاستحقاق الديمقراطي في اتحاد الكتاب الفلسطينيين، استطاعت القائمة الحركية استعادة الدور المفقود في قيادة الاتحاد، وإعادة دوره على مستوى النشاط المبرمج إلى سابق عهده بكثافة التواصل والحضور..

ومن الأسباب التي أعطت زخماً في تكثيف نشاطاته الثقافية، حرص الأخوين أبو الأديب "سليم الزعنون" وصلاح خلف "أبو إياد" على مبدأ المشاركة والحضور بشكل دائم، وكانت علاقة الهيئة الإدارية للاتحاد معهما علاقة متميزة، خاصة وأن أمسيات الاتحاد الشعرية كثيراً ما تضمنت مساهمات"لأبو الأديب" الذي كان يكتب الشعر من صغره، أما صلاح خلف فله مع أعضاء الاتحاد لقاءات، وندوات في مفاصل الحركة السياسية، وعند كل المواقف التي كانت تقتضي حضوره،بالإضافة إلى عوامل أخرى تتعلق بحيوية الساحة، واستعداد جمهورها النوعي لتقبل الفعاليات، والأنشطة، والمزيد من العطاء.. حتى أصبح بمقدور اللجان العاملة، وخاصة اللجنة النقابية أن تجعل الشعر، والقصة، والنقد، والفكرة، مادة تداول بين الجمهور المثقف، الذي أصبح يتوقف عند القصيدة، والمقالة، والقصة المنشورة، أو المقروءة، هنا وهناك، ومن الأسباب التي لا يجوز تجاهلها، قاعدة المشاركة

للأدباء والكتاب الكويتيين والعرب في أنشطة البرامج الثقافية، ومنهم من كان دائم الحضور في هذه الفعاليات، مثل عبد الله حسين، وأحمد السقاف العتيبي، ويعقوب السبيعي، و د. خلفة الوقيان، وجنة القريني، ومحمد يوسف، ومحمد البني، وأبو فراس (محمد عيادة) من سوريا، والمرحوم الأستاذ سعيد فرحات من لبنان، وآخرين من الأدباء والكتاب الكويتيين والعرب، إلى جانب إسهامات رابطة الأدباء الكويتيين في تبادل الأنشطة،وتداخل البرامج المشتركة.

ومن الجانب الفلسطيني ومن أعضاء الاتحاد كان أبرز المشاركين في الأمسيات والندوات التي أرست قواعد التواصل الثقافي بشكل متميز، الصديق الشاعر ربحي محمود، ود. رجا سمرين، وأكرم عرفات، ويحيى برزق وخالد فوزي عبده، وهلال الفارع، ومريم الصيفي، وجوهرة سفاريني، ومحمد الأسعد، وسميح محسن، والمرحوم فتحي ديب سليمان، وعلى الزناتي، خلاف الشعراء والأدباء الكبار الذين استضافهم الاتحاد في فعالياته من أقطار عربية متعددة.

وعلى الرغم من اهتمامي المتزايد في هذا المجال، إلاّ أنني لم أغفل الجوانب الأخرى،فكان علي أن أخط طريقاً واضحاً لميول أخرى جمعتني مع كتاب عرفتهم على صفحات الصحيفة التي استقرت بها رغبتي في الكتابة المنتظمة، فعملت في صحيفة الأنباء طيلة الفترة المتبقية كواحد من كتاب الملف

السياسي للجريدة التي أصبحت بقدرة ومهنية العاملين بها في طليعة الصحف الصادرة، ونشرت فيها العمل المسرحي الذي أنجزته مؤخراً قبل طباعته وهو "سلطان الوهم"، على حلقات في صفحاتها الثقافية، وكثيراً ما كان يتصل بي الأستاذ يحيى حمزة مدير التحرير ليطلب موضوعات، وتحقيقات، وفعاليات ثقافية، أو سياسية ليؤكد لي في كل مرة أنه يعدّني من أسرة تحرير الأنباء، وليؤكد رغبته في أن يعفيني من الدوام المنتظم في الجريدة..

وكان يحرص في نهاية كل شهرعلى أن يذكرني بضرورة مراجعة قسم المحاسبة في الجريدة لقبض مستحقاتي.. وبقيت الفترة الزمنية التي سبقت الانتفاضة المجيدة ناشطاً في مجال المسرح، وحريصاً على متابعة الأعمال المسرحية الكويتية، وبعض الأعمال المسرحية الفلسطينية، التي تعثرت بعد تعثر المحاولات التي جرت لتشكيل مسرح قومي فلسطيني، يستطيع أن ينقل الجهود المسرحية الفلسطينية من مستوى التجريب، إلى مستوى الاحتراف.

ومن خلال الصداقة التي كانت تجمع بين المسرحيين في صفوف اهتماماتهم المسرحية، كنت وزميلي المرحوم علي كراجة على علاقة متميزة مع أساتذة المعهد العالي للفنون المسرحية في الكويت، وعلى رأسهم الدكتور أحمد عبد الحليم وزوجته السيدة عايدة عبد العزيز.. وكانت الرغبة متوافرة لدى العديد من هؤلاء الفنانين لتقديم أعمال فنية.. تدعم الانتفاضة، وتعزز دور الاتحاد العام للفنانين التعبيريين.. فكنت أمامهم مطالباً –على الدوام –

بضرورة تقديم النص الذي يحقق لهم هذه الرغبة.. ولأنني كنت أعتقد أن العمل الذي أنجزته مؤخراً، ونشر في جريدة الأنباء لا يفي بالغرض المطلوب، رغم إلحاحهم على قدرة تجسيده على المسرح، فإنني اتجهت لكتابة نمط آخر مختلف، مستخدماً اللغة الدارجة أو اللغة الوسطى، التي يستطيع الممثلون تناولها بيسر وسهولة، وتنسجم مع ظروف الأجواء التي جعلت الانتفاضة تجلياً لبطولة شعبية جماعية.. فكان الأوبريت الغنائي "موال الأرض" هو العمل المسرحي الذي استقر عليه الرأي بين أطرافه، وهو عمل مستلهم من التراث الشعبي الفلسطيني في صور التجديد اللازمة.. وبعد الإجراءات الإدارية والتنظيمية لإصدار العمل على نفقة رجل الأعمال مصباح الغول، طلب إلي المخرج أحمد عبد الرحيم إعداده كنص مسرحي.. وطلب الأستاذ غازي الشرقاوي لتلحين أغاني العمل، والأستاذ أحمد خلوصي للإخراج التلفزيوني، والأستاذ أحمد علاء الدين لتصميم الدبكات والرقصات الشعبية، وأكد ضرورة التزامن في إنجاز كل ذلك في سياق المدة المحددة للانتهاء من التدريبات، لجمع العرض المسرحي في بروفاته المحددة أولاً، ثم البدء بتكثيف الحملة الإعلامية، والدعائية من خلال الصحافة والإذاعة والتلفزيون.. وما إن استقر الرأي على إعطاء دوري البطولة للفنان محمود سعيد، والفنانة عايدة عبد العزيز، حتى التأمت أركان العمل كله، وانتظم العمل في مراحله الأخيرة، فتم عرضه لمدة ستة وعشرين يوماً متواصلاً بكثافة الحضور، وتم تسجيله

تلفزيونياً عبر سيارة النقل الخاصة بتلفزيون الكويت.. وعرض لاحقاً في الجزائر لمدة ثلاثة أيام بدعوة خاصة..

وأستطيع رغم ذلك أن أؤكد: إن قضية المسرح قضية شائكة، وإن النجاح الذي يحققه أي عرض مسرحي يجب أن يجر وراءه حوافز مستمرة للتواصل والاستمرار، وإن أي تجربة مسرحية لا تعبر بالضرورة عن مستوى الجهد المسرحي العام.. إن المسرح واجهة لبناء أناس متخصصين يتبعون التجربة تجربة أخرى متقدمة عليها، حتى يظهر الجيل المسرحي بكل مقوماته.. وعند هذه النتائج والقناعات أيقنت أن ذلك كله يستلزم طاقة مؤسسة وقدراتها، لا طاقة أفراد وأهواءهم، والركن الأساس في العمل المسرحي الذي لا يسقط بالتقادم هو النص.. ولكن النص وحده لا يكفي..

وكانت حمامة..
وحاميها شبل ضرغام..
وكان يفرش جناحه عليها
في أمان وسلام..
ويعدْ فيها الأمل والفرح
والأيام..
ولما ابتدى الليل..
طارت، طارت الأحلام..

* * *

ضرغام فارس بطل
في طلعته ضرغام..
ويحب أرض الوطن..
مفروشة بالأحلام..
وكان ديما يرددها
في كل مكان..
ما بيحرث الأرض
الا ارجالها الشجعان..

و"موال الأرض" كانت محاولتي الأولى لكتابة النمط الشعري الشعبي، ولم تكن الأخيرة، فبعد فترة وجيزة، حضر إلى مكتبي أحد الأصدقاء، ويدعى أبو رامي، ممن يرتبطون بعلاقة متميزة مع الفنان محمد رشدي، وقال إنه حاول الاتصال بي مراراً ولم يجدني، وإنه جاء ليخبرني أن الفنان محمد رشدي قد اطلع من خلال الصحافة على فقرات من "موال الأرض" في معرض بحثه عن نص شعري فلسطيني لتلحينه وغنائه تضامناً مع أطفال الحجارة، وإنه يطلب لقائي على عجل قبل انتهاء زيارته للكويت.. فعرفت من خلال الحديث الذي جرى بيننا في اليوم التالي.. أنه يرغب في أداء النص الذي يكرس لونه الشعبي الذي اعتادته الجماهير، وذكرني بملحمة الشرقاوي، فتكونت لدي

صورة ذهنية لعمل فني يكون أكثر من أغنية، وأقرب إلى النفس الملحمي، فكتبت قصيدة "أصحاب القرار" التي طلب إلي الإذن بتسميتها "ملحمة الحجارة" فوافقت، وقد ذهل بالسرعة التي كتبت بها النص وشكله ومضمونه ولغته، كأنه جاء مطابقاً لما يدور في ذهنه تماماً.. فتشجع بإجراء اتصال سريع بالموسيقار بليغ حمدي الذي كان مقيماً في لندن، ومتنقلاً بينها وبين بارس في تلك الفترة..

وكانت استجابته سريعة في تلحين النص، وتأمينه لمقر إقامة الفنان محمد رشدي في فندق "هيلتون الكويت"، وفي لقاء ضم عدداً من الفنانين، كان الفنان محمد رشدي قد استكمل تدريباته محاولاً قدر ما استطاع الابتعاد بالعمل عن اللهجة المصرية.. وتقريبه إلى اللهجة الفلسطينية.. خاصة وأن اللغة والمفردات تصنفان ما بين الفصحى والعامية.. وكان أبو رامي متشجعاً للعمل الفني، حتى أنه أبدى الاستعداد لإنتاجه على حسابه الخاص، والتكفل بكل نفقاته وإهدائه إلى شعبنا الفلسطيني في انتفاضته العملاقة، لكن تلفزيون الكويت كان سباقاً لذلك، فشريط الكاسيت الذي تسلمه الفنان بدر المضف من المطرب أصبح مادة حيوية قابلة للعرض، بعد أن أخرجه في الصورة التي جعلت الهواتف تنهال على التلفزيون لإعادة بثه من أجل تسجيله.. وكانت الصحف المحلية قد تناولته كحدث الموسم الفني، وأن

أقل ما كتب فيه أنه عمل يرقى فوق مستوى الأغنية ليصل مستوى الملحمة بالفعل، أو ما بينهما..

قال الطفل يما أبوي وين صار
أبوي يما انقتل في ليل ولا نهار
قتلوه غدر النذالة لما كنا صغار
والخوف كان طوينا في زمن غدار
ضاع البطل.. ضاع الأمل
واستشهدوا الأحرار
أعطيني يما حجر..
أعطيني يما حجار..
الثورة ثورة شعب
والثورة للثوار
أعطيني يما حجر
حنكمل المشوار..

* * *

وشق القميص وفتح صدره
وقال يا نار..
إحنا ولاد البلد

إحنا حماة الدار

ما انخفش والله رصاص الغدر والغدار

وعهدك علينا يا وطن

حنكمل المشوار

* * *

وضرب الحجر..

واتجمعوا الأشبال في الحارات

والراية صارت بعدها رايات

ضرب الحجر

واستنفر الأحياء والأموات

والآية صارت

بعدها آيات..

وفرح رشدي كثيراً لنجاحه، وسرّ أكثر عندما علم أن تلفزيون الكويت قد وزع العمل، وأن التلفزيون الجزائري، واليمني، والعراقي، ومحطات أخرى قد بثته مراراً، وحين تلقى دعوة من دائرة الثقافة في تونس، اتصل بي طالباً حضوري معه، ولكنني اعتذرت بأسف بالغ؛لأن ظروفي لم تكن تسمح لي بالسفر آنذاك، وقلت له إنه سيجد في تونس أناساً يلتقونه باعتزاز وترحيب بالغ، وسيقضي معهم وقتاً طيباً، وهو ما حدث بالفعل؛ إذ إن الأخوين أبو

نزار "صخر حبش" ويحيى يخلف، كانا قد عبّرا له عن كل الشكر والتقدير لمواقفه، ومواقف الفنانين المصريين الذين ظلوا متحفزين على الدوام لنصرة القضية الفلسطينية..

وبعد أشهر معدودات كان قد جمع عدداً كبيراً من الأدباء والكتاب والفنانين في منزله، واستقبلني بحرارة بالغة.. وكان في مقدمة هؤلاء الشاعرعبد الرحمن الأبنودي صديقه وكاتب نصوص أغانيه، والصحفي حلمي سالم وآخرون..

وكم هي بعيدة الأحلام وقريبة في اللحظة نفسها.. وهكذا هي الأيام تدور روتين دورتها فيطحن الزمن الذكريات، ويخلف وراءه غبار الوقت الذي مضى..

ولأنني لا أقوى على مواجهة اللحظات القريبة، فإنني سأجعل باقي سنوات الأزمنة تتقادم، فتجاهلي لجوانب كثيرة من الأحداث التي مرت بي، ومررت بها، لا يعني إهمالي لها تماماً، ولكنني أجرب الابتعاد عن حقول الألغام، التي أدمت جراحي في بداية أيامي حين اصطادني الليل في ليلة من ليالي الشتاء الأولى، فقررت منذ ذلك الوقت أن أحارب الظلام، وأن أجعل الوعي، والمنطق، والحقيقة، لغة التداول، وبعض ذلك يمكن أن يقال، وبعضه يجب أن يقال.. وما يجب أن يقال، قد يجعل القول خارجاً على نطاق

المألوف، وللأسرار مكانها، وكل سر يحمل زمنه معه، ولا تتفتح الأزهار في غير أوانها، فالجانب أو المنحى الذي اتخذته في هذه العجالة هو ما يختص منه بالجانب العام في حدوده الممكنة، وفي إطار التجربة النضالية والإبداعية التي لا هدف من ورائها إلا تحفيز كل المناضلين على وضع شأنهم الخاص، الذي لم يعد خاصاً في خدمة أهدافهم لتكون موضع تناول واستفادة من هم بحاجة لها، حين تدلهم الليالي، ويصبح الخطر محمولاً على أكفهم التي تحمل عبء التواصل والنهوض..

لذلك أضع الجانب الآخر من التجربة، وهو الجانب الأقرب منها موضع رهان قادم على ظهر المحاولة، ليس هروباً مؤقتاً تقتضيه الحالة، ولكنه محاولة لإعطاء الذات فرصة أكبر من التأمل، والمراجعة، والاستلهام، وفي هذه الفترة التي تلت الاجتياح الأمريكي للكويت والممتدة ما بين عام 1990 وحتى عام 2005 لا يستهان بها من صفحات الذاكرة وفصول أخرى من فصول العطاء النضالي والإبداعي التي تضمنت الأعداد المتبقية من كتبي الصادرة في أحضان الحرية المسلوبة في وطننا، ومنها "حلم الفتى العائد" و"وثبة للغزال.. قبلة للقمر" و"رجع الجوى" ... الخ. غير الكتب والمجموعات الشعريه التي تتجمع على امل ان تجد سبيلها لتكون في مكانها الصحيح بين يدي من هم بحاجة لها

وقبل النهاية الأولى وجدت من المناسب أن أسجل رأيا أحببت أن أبديه في نظرتي الخاصة للشعر الذي لم يكن هاجسي، ومصدر وحدتي فقط، بل هو ضرورة حياتيه، لا يعفى من المسؤولية التي يترتب عليها الاهتمام بالفن كفن في شروطه الإبداعية..

ولا يعفى المبدعين كافة في مجالات إبداعهم من مسؤولياتهم تجاه الأدب، ومواصفاته، ومقوماته، حتى لو كتبوا قصائدهم، وقصصهم، ورواياتهم داخل السجون، والمعتقلات، أو في خنادق القتال وتحت القصف، والتجربة النضالية يجب أن تكون حافزاً في صياغة المشروع الثقافي وبنائه بناءً سليماً مستوفياً لكل ما يتطلبه تلك..

*****

المحتويات

المقدمة..... 6
بعد الغروب 6
الجزء الأول.....12
الجزء الثاني.....96
المحتويات ..... **خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**

*****

شهاب محمد

الراية والعنوان..

كم سيطول غيابك أيها البعيد في غربة الأوطان
وكم ستكون مضيعا في وهمك الذي استعذبته
سرابا وضبابا ..
انهض الآن إلى ذاتك ، وانظر في مرآة جبينك ..
تجد العالم حولك مسكونا بالرغبات وبالشهوات ..
وتجتمع على أشلائك كل وحوش الدنيا ..
لا زمنا ينبئك بما ينتظرك في الأزمان ..
أو وطنا يصعد في ذاتك حتى حد اللذة والفرحة.
أو حد المقصلة المهورة بالختم الأحمر ..
والعنوان هو الخوف يدق الأبواب ..
قد السيف قميصك من دبر ،
فاستر عورة قلبك بالحبر السري.
وورق الزيتون الأخضر ..
واكتب شعرا ، نثرا ، لغة ،
واجعل غضبا ، مطرا ، قدرا ،
يخطف وجه البرق القادم ،
يمحق أوجاع النسيان ..
واحفر بأظافرك الرغبة ، والقوة في القول هناك .. هناك ..
الأرض هي القصة والصحوة والفكرة والوجدان ،
والوطن هو الروعة ، واللوعة ، والحرمان ..
والإثنان هما الراية والعنوان ..

دار بسمة للنشر الالكتروني
+212 771 814 934
basma24design@gmail.com
دار بسمة للنشر الالكتروني
www.darbassma.com